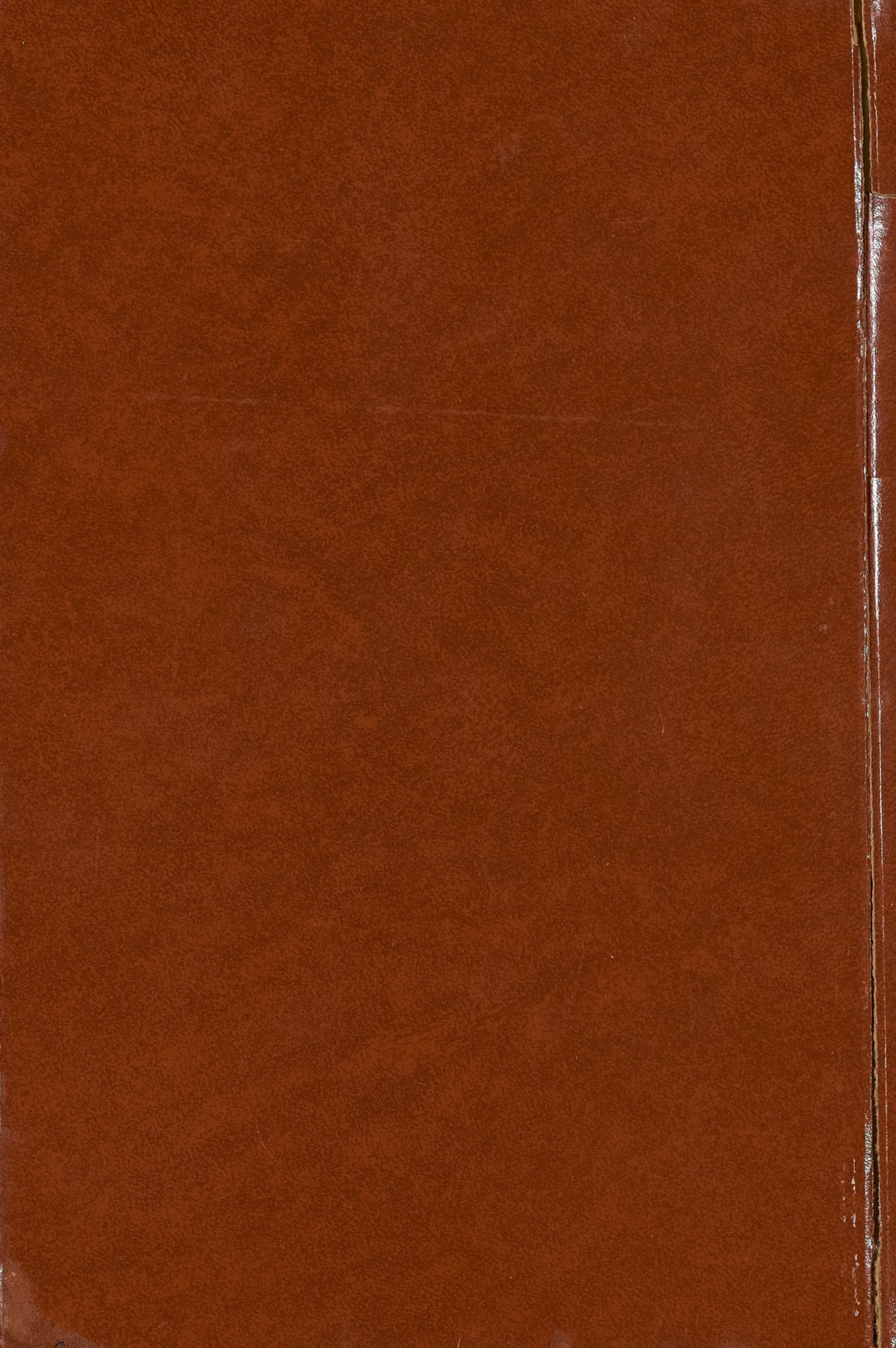
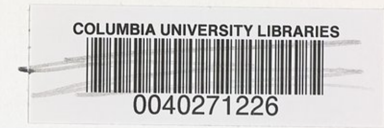








الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

الذكرى المئوية

لوفاة المغفور له

محمد على الكبير

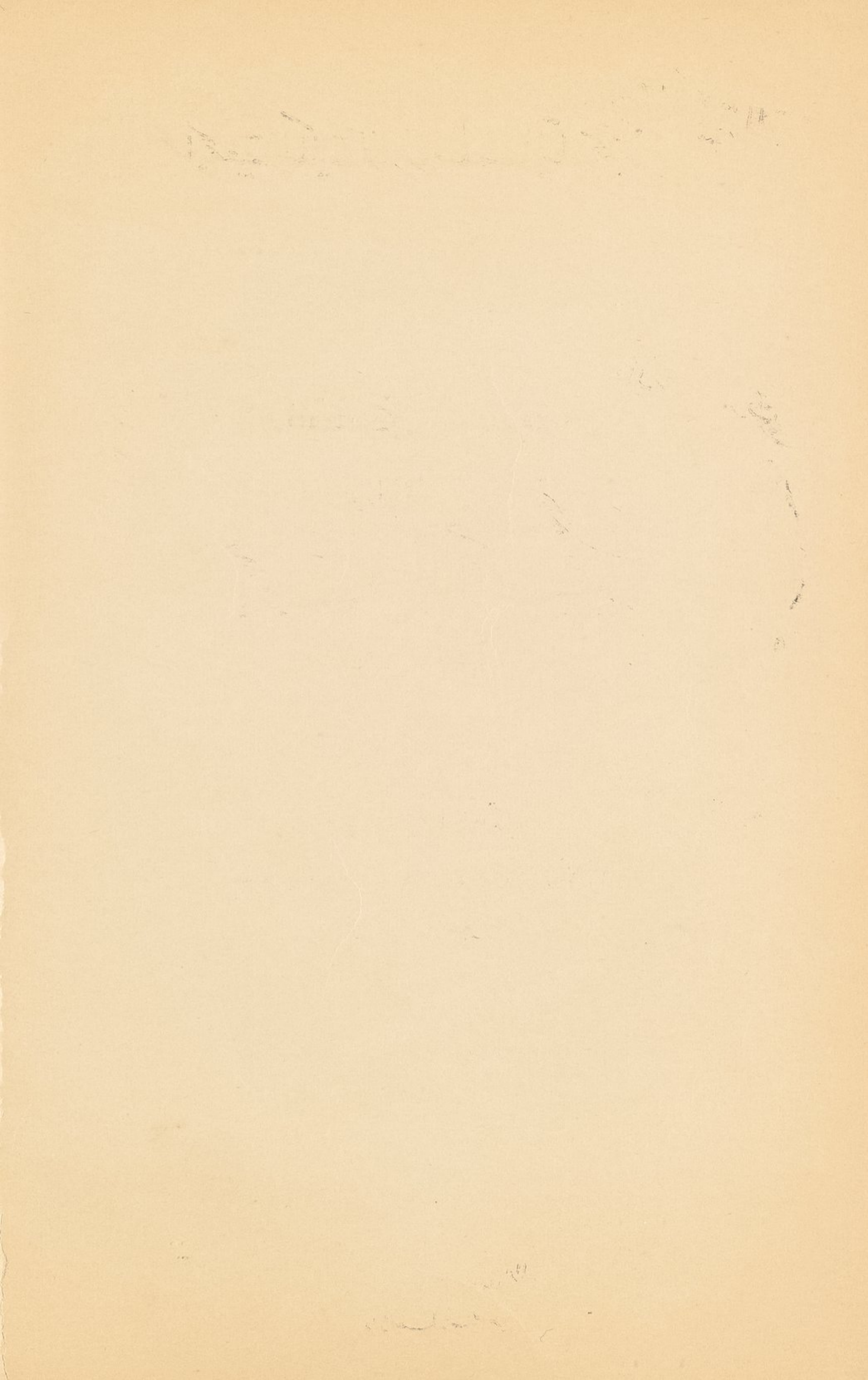
١٨٤٩ - ١٩٤٩

دار الأوبرا الملكية

مساء يوم الأحد ٢٩ محرم سنة ١٣٦٩

الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٤٩

دار المعارف بمصر



الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

الذكرى المئوية

لوفاة المغفور له

محمد علي الكبير

١٨٤٩ – ١٩٤٩

دار الأوبرا الملكية

مساء يوم الأحد ٢٩ محرم سنة ١٣٦٩

الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٤٩

دار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

حفلة الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

فى مساء يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٤٩

احتفلت الجمعية الملكية للدراسات التاريخية فى دار الأوبرا الملكية بذكرى العاهل العظيم محمد على الكبير . وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فأناب عن جلالته فى شهودها صاحب المجد النبيل عمرو إبراهيم . كما شهدها كثير من العلماء والعظماء وممثلى البلاد الشرقية والغربية ورجال القصر الملكى وكبار ضباط الجيش واساتذة جامعتى فؤاد الأول والازهر .

وقد رفع فى صدر المكان تمثال نصفى من البرونز لمحمد على باشا ووضع عليه إكليل من الزهور النادرة . وقد شد إليه شريط من الحرير ذى اللونين الأخضر والأبيض رمزا للعلم المصرى .

وجلس أمامه حضرات أصحاب السعادة والعزة رئيس وأعضاء مجلس إدارة الجمعية وهم صاحب السعادة محمد طاهر باشا وصاحب العزة الأستاذ محمد شفيق غربال وحضرات أصحاب السعادة والعزة ابراهيم بك شاهين ومحمد حلمى عيسى باشا وعبد الوهاب عزام بك ومحمد قاسم بك ورينيه بك قطاوى ومحمد رفعت بك والدكتور ابراهيم نصحى بك والشيخ عبد العزيز المراغى بك والدكتور محمد مصطفى زيادة والأستاذ جاستون ڤييت والدكتور ايتين دريوتون والقائمقام عبد الرحمن زكى .

وبعد أن افتتح الاحتفال بآى من الذكر الحكيم رتلها الأستاذ الشيخ عبد الفتاح الشعشاعى ألقى صاحب السعادة محمد طاهر باشا رئيس الجمعية كلمة الافتتاح . ثم ألقى الخطباء كلماتهم من بعده .

وقد بدأت الحفلة فى تمام الساعة الخامسة وانتهت فى حوالى الساعة السابعة

كلمة حضرة صاحب السعادة محمد طاهر باشا

رئيس الجمعية

ياصاحب المجد النبيل :

باسم الله نفتتح هذا الحفل — وإننا نلتمس من حضرة صاحب المجد مندوب جلالة مليكنا المعظم أن يرفع للأعتاب الملكية السامية خالص شكر الجمعية وصادق ولائها لتفضل مولانا جلالة الملك بإرسال نبالتكم مندوبا لتشريف هذا الاحتفال لتخليد الذكرى المئوية لوفاة المغفور له العاهل العظيم محمد على الكبير الجد الأكبر للأسرة الملكية الكريمة ومنقذ مصر ومؤسس مصر الحديثة فهو العبقرى الذى لم يعرف للتعب معنى وكان شعاره كما يقول رحمة الله عليه :

« إن مجد البلاد التى أحكمها وضمان رفاهية دائمة لها لهى أعز أمانى . وقد وقفت حياتى كلها على هذا الغرض وحده إذ وقفت حياتى على مجد بلادى » .

هذه هى شعاره ومبادئه والتاريخ مصداق لما قال .

إن الجمعية الملكية للدراسات التاريخية هى من خير مؤسسات هذا العهد الزاخر عهد فاروق المفدى وإن رسالتها الوطنية هى من أشرف وأدق وأخطر الرسالات إذ تتلخص فى تدوين تاريخ بلادنا العزيزة الذى هو أقدم وأسهب تاريخ فى العالم كله . وذلك على أسس صحيحة ومنطق سليم بعيد عن الأغراض أو التحريف السياسى لا تشوبه المبالغة لأنه بلا شك يحوى بين طياته أسس الإنسانية أجمع وقواعد اجتماعها وأسباب رقيها وانحطاطها فهو نبراس قويم وهدى لجميع الأمم بلا استثناء .

عدا ذلك فإنه سيكون إن شاء الله للأمة المصرية على الخصوص وثيقة

صادقة ومستندا حقيقيا تقرأ فيه ماضيها الطويل المجيد الحافل بالحوادث السياسية والرقى الاجتماعى والتقدم العلمى ، مما يدفعها إلى معرفة ما هو الاتجاه الصائب للرسالة المثلى التى يجب أن يتبعها الجيل الحاضر نحو الرقى السياسى والعلمى والخلقى على أسس مضمونة ثابتة .

إن هذا الاحتفال بذكرى العاهل العظيم والتحدث عن صالح أعماله المفيدة وخدماته العظيمة وما سبق من بحوث فى السنة الماضية بمرور مائة عام على وفاة المغفور له القائد المصرى العظيم إبراهيم باشا إن هو إلا افتتاح مبارك لأعمال الجمعية ، إذ قد أتاحت الفرصة لبعض حضرات أعضائها المحترمين أن يحدثونا بالقليل من الكثير مما يستحق أن يقال فى هذا الصدد . وإنى أترك الكلمة الآن لحضرة زميلى المحترم محمد شفيق غربال بك مع تكرار آيات الشكر الجزيل وسامى الإجلال وخالص الولاء لمليكنا المعظم المحبوب . وكذا احترامنا العظم لنبالة المندوب الملكى العظم .

كلمة حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد شفيق غربال بك
وكيل وزارة المعارف ونائب رئيس الجمعية

صاحب المجد النبيل ، مندوب حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم.

شاء الله أن يخرج محمد على من موطنه الأول فى تركية أوربا إلى ميدان خليق بالأبطال ، إلى مصر ، وأن يدخلها فى ساعة من الزمان هى أيضا خليقة بالبطولة ، دخلها وحيداً فريداً فى أوانه . لم يصطنعه وزير أو أمير بل ولا سلطان . ولم يقدمه قنصل أو سفير بل ولا إمبراطور ، ولم يكن مخلوق حزب أو أداة جماعة من الناس .

نفس عصام سودت عصاما وعودته الكر والإقداما
وصيرته ملكا هماماً

ولم يدبر حوادث ارتقائه ، ولم يرتب فصولها ترتيب المؤلف القصص ، ولم يداهن ، ولم يتظاهر بما ليس فيه . ولكن كان الناس هم الذين يتوجهون إليه ، هم الذين يرون فيه رجل الموقف . وقد قبل إجماع الناس عليه ،وتولى الأمر على مشقاته ، ولكن على أن يسير فيه على نهج من وضعه ، على أن يستجيب لماضي مصر وحاضرها ، فيلائم بين ذلك الحاضر وعالم مضطرب بحيوية الثورة ، وحضارة أوربية ملكت أدوات الزحف والاكتساح ، شعارها الدائم من وقف مات .

أدرك منذ اللحظة الأولى أنه لم يل أمر باشوية ، بل جلس على عرش مملكة عظيمة ، كل ما حوله فيها يشهد بما كان لملوكها وسلاطينها ، وأن عناية الله سلمته حكم أمة واحدة يدر نيلها وأرضها الفيض العميم . وهدته مواهبه لنهج يحقق به رجاء الناس . فيصون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم

ويرتقى بهم درجات إلى مالم يكونوا يعهدون .

وكانت الساعة حقيقة بالبطولة ، فقد فتحت حوادث الثورة الفرنسية ومقتضيات الثورة الصناعية الكبرى أعين السياسة لمصر ولغيرها . ألم يسبق توليته نزول جيش فرنسى بمصر ؟ ألم تكن تتداعى القوة الإسلامية فى الهند نحو الانهيار النهائى ؟ ألا يحس كل عثمانى بضغط الدول على السلطنة وتوغل القوة الروسية فى اتجاه إيران والإمارات الإسلامية الآسيوية ؟ فالأمر إذن لا يحتمل التأجيل ، وإعزاز مصر والإسلام يتطلب العمل السريع ، والإصلاح الشامل والقوة التى تصون الكرامة ، قوة الحديد والعلم والمال .

* * *

وها هى مائة عام تنقضى على سكون تلك النفس الوثابة . نقف عندها خاشعين ، مترحمين ، نرسل على مر الأيام تحية الوفاء والإعجاب إلى ذلك الجناب المهيب ، المتألق بجلال المشيب ونور المجد ونقول :

أيها المولى الكبير ، إن جيلنا أيضا عرف — كجيلك — حرب الأمم ، وأنها تنفذ إلى أعمق ما فى النفس الإنسانية وأنها لا تقف عند وقف القتال . وإن عصرنا أيضا شهد — كعصرك — أدوات جديدة يضعها العلم فى يد الإنسان ، فتزداد القدرة على الخير وعلى الشر أضعافا مضاعفة . وإن مصرنا يفد إليها — كما وفد إلى مصرك — الدعاة يدعون — كما دعيت أنت وكما دعى شعبك — لهذا الوضع أو ذاك من أوضاع التنظيم الاجتماعى . وإن جيلنا قد جدت له مشكلات لم تستعص على فكرك الثاقب وعزيمتك الماضية ، فهو بعد يسعى لتحديد ما بين الفرد والجماعة ، وهو بعد يتردد فى تفسير واجبه نحو تلك الحصة من العالم التى ينتمى إليها وطنه .

أيها المولى العظيم : هذا ما يجيش فى نفس المصرى يوم يحتفل بذكراك العطرة ، وإخالنى أسمع الصوت الرهيب : لقد خلفت لكم أبنائى الملوك ، وخلفت لكم سيرتى ، وهما عهدى إليكم . ونعم العهد .

* * *

ولقد تهيأ لمحمد على الكبير أول اختباراته للسياسة الكبرى فى عصر الإمبراطورية النابليونية ، فكأنه رآها بعين الميكروسكوب يكبر أجزاءها ، ويظهر كل ما دق من معالمها . وتأثر بنظرته الأولى تلك طول حياته ، ففهم سر الحركة ، وأنها تستطيع أن تغير كل شيء . هذه خريطة أوربا مثلا ، الظاهر أن نابليون يستطيع أن يفعل فيها ما يشاء ، فهذه عروش قديمة تزول كأن لم تغن بالأمس ، وهذه الإمبراطورية الفرنسية نفسها تزول بعد حين . وفى مدى تلك السنوات الضيق يتجمع الشيء الكبير من القواعد الأساسية فى تشكيل العلاقات السياسية الكبرى : التفوق البحرى البريطانى ، موقع الروسيا ومواردها ، تسخير قوى الإنتاج وتنظيمها لخدمة غايات قومية . وبهرته الحركة تماما ، إذ صادف ذلك هوى فى نفس مشرئبة طموحة ، وكان يمقت العبث والإسراف والتبديد ولا يطيق أن يرى الخراب أو ما هو صائر إلى خراب . قال : « إن نيلنا لوطن عديم النظير كهذا لهو من النعم الجسيمة . وعدم القيام بالسعى والاجتهاد فى عمارته يكون عين الكفر بالنعمة . وهذا ما لا تقبله شيم جبلتى وتأبى نفسى أن أكون شريكا لكم فى ذلك » ولهذا كثر إطلاق الوصف « الخيرى » أو « الخيرية » على الكثير من منشئاته ، فقد رام بها الخير بمعنى أوسع مما جرى به الاستعمال وكاد يرتفع فى نظره بناء القنطرة من مرتبة الأعمال النافعة أو العامة إلى مرتبة العبادة والاعتراف بأنعم الخالق عز وجل . وذلك — كما قال الشيخ رفاعة — « إن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلوية وتسلطت على قلبه وأخذت بمجامع لبه ، وإنه عمل تماماً بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم » .

ومن دول المسلمين إذ ذاك دول حاولت أن تقتبس من الحضارة الأوربية ما ارتضته من النظم العسكرية والإدارية ثم وقفت عند ذلك أو ظنت أنها تستطيع أن تقف عند ذلك ، ومنها دول حاولت الإصلاح بإحياء الحياة السلفية . والغاية لها خطرها وكل مجتمع جدير بهذا الاسم لا يستغنى عما

يربطه بأسلافه ، كما أنه لا يستطيع أن يبقى إذا اعتبر نفسه فى حرب دائمة ضد حاضره وضد مستقبله . ولكن كان الوصل بين الماضى والحاضر سر الإصلاح المحمدى العلوى كله . فهو تجديد ومحافظة ، فبينما يستشهد بسياسته التعليمية مثلا أنصار تعليم العلوم الحديثة نجد أنصار المحافظة على الآداب والعلوم الشرقية القديمة يشيدون بعمله فيقولون إنه علم العلوم الحديثة ولكن باللغة العربية ، وأنشأ المدارس الجديدة ولكن على أساس تعليم عربى إسلامى منتشر فى كل مكان . وفى الزراعة أيضا يحتفظ للأرض بقانون الفلاحة فيخرجها من مجال التبادل الحر ويخضع شئونها لهيمنة ولى الأمر ، ممثل المصلحة العامة ، فهذه محافظة ، يصحبها تجديد بل وثورة فى نظام للرى عرفته مصر منذ أن كانت وتوارثته الأجيال جيلا بعد جيل ، وإصلاح فى طرق الزراعة وأساليبها ، وتنويع فى حاصلاتها. وفى التجارة كان الأمر إحياء وبعثا لمركز مصر فى تجارة العالم . وفى الصناعة يكاد يكون الأمر كله تجديداً ، فقد عقد العزم على إنشاء الصناعة الكبرى كما عرفها القرن التاسع عشر .

وقضى بهذا على فكرة المشاركة والمقاسمة فى الأموال العامة ، وأقام مكانها العمل على إحياء الموات ، فوقف الخراب عند حد ، ثم ارتد أمام تقدم العمران ، ورفض الفكرة القائلة بأن الإنسان يستطيع أن يفعل بما تملكه يمينه ما يشاء . وأكد حق ولى الأمر بل واجبه فى توجيه الجهود الفردية نحو غايات أجتماعية ، فخرج بذلك عن الحد الذى رسمه بعض مفكرى عصره عندما قصروا واجب الحكومة على المراقبة والحماية عند الأقتضاء فحسب ، ولكنه اقتصر فى تقييد حرية الفرد على الدائرة الاقتصادية ، ولم يتجاوزها إلى دائرة الحياة الروحية ، بل تركها طليقة من أى قيد ، لا سلطان فيها إلا للضمير وللدين . وبعد . . أليست هذه أنفس أنواع الحرية ، بل أليست هذه هى الحرية .

ولم يبال بالبحث عن أى المذاهب يتدرج فيه نظامه . رأى فيه أتباع سان سيمون محقق الحلم الذى حلموه ، وأشادوا بالرجل الذى يجمع فى يد واحدة السيف والآلة ، ويتخذ منهما أداة واحدة ، يوجه الزراعة والصناعة

والتجارة والعلوم والفنون ويسيطر على الجيش والأسطول ، فاستطاع بذلك أن يكبح جماح عناصر الجمود والرجعية وأن يطلق العنان للقوى المنتجة ، وعبر بنتام عن إعجابه بالحاكم المسلم الذى حرر نفسه من خزعبلات الماضى ، وعن أمله فى أن يدخل فى أنظمته قدراً أوفر من البنتامية ، ويشير عليه أتباع مدرسة مانشستر بأن يصرف جهوده لزرع الغلات التى تطلبها المصانع الأوربية وأن يترك الصناعة للأقطار الصناعية بحكم الطبيعة ، ويستمع محمد على لأولئك ولهؤلاء . ويستخدم أولئك وهؤلاء ، لا يثنيه عن الانتفاع بشخص غرابة فى الأطوار أو غلوه فى بعض الاتجاهات ، ولا يأبه عند المصلحة العامة بفوارق الجنس واللغة والدين ، فالمخالطة شرط العمل المثمر ، وقد عدها الشيخ رفاعة أكبر ما أقدم عليه ، قال : « فلو لم يكن له من المحاسن إلا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبية بعد أن ضعفت الأمة المصرية بانقطاعها المدد المديدة والسنين العديدة لكفاه ذلك ، فقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد ، وآنسها بوصال أبناء الممالك الأخرى والبلاد لنشر المنافع العمومية واكتساب السبق فى ميدان التقدمية » .

طلب العلم والمال لاصطناع قوة الحديد ، فكون الجيش على الوجه الذى أوجدته الديمقراطية الفرنسية وليدة الثورة الفرنسية ، أى التجنيد العام ، وسوى بذلك أمراً طالما استعصى على الحكومة الإسلامية . فكان سر اضطرابها وتزعزع كرسيها ونفاد مواردها ، وكتب فى ذلك إلى ناظر الجهادية : « إن مؤسسة الجهادية هذه أعزها الله ، لهى فى حد ذاتها نعمة جليلة وأمنية بلغ من شرف قدرها أنى مازلت منذ عشر سنين متعللا برجاء إدراكها ، قائلا : أيكون لى أنا الآخر سعادة نيلها ؟! بل ما فتئت ألتى بنفسى وأولادى وعيالى وبعرضى ومالى وذلك العدد الكبير من أتباعى وأصدقائى الذين هم غرس يدى وثمرة تعهدى ألتى بكل أولئك فى المهالك وأعرضهم للمضار والأخطار آملا إحداث هذا السلك الجهادى » . وكان له ما أراد ، وأنشأ الأسطول ، وشهد بنفسه فى ساعات الفجر والضحى والزوال وفى أيام الحر والقر كتل

الخشب والحديد ولفات الحبال والقماش تتحول فى أيدى المصريين غلايين وفرقاطات وكان يوم إنزال السفينة فى البحر كاملة العدد والعدة من أيامه المشهودة .

* * *

وكانت قوة الحديد فى نظره وسيلة لا غاية ، لم تكن إلا آلة العيش الكريم ، فقد كان بطبعه كارها لسفك الدماء ، مؤثرا الاعتدال . استعرض الشيخ رفاعة حروبه حربا حربا وانتهى إلى الملاحظة الدقيقة وهى أن تلك الحروب « لم تكن من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود ، إذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود » .

أجل لقد رسم لنفسه منذ الأيام الأولى مشروع إحياء العالم العثمانى وسار فى تنفيذه بخطى ثابتة متئدة ، فرفض أن يتخذ من مصر موطنا محدود الآفاق ، ضعيف الآمال ، ورأى السلامة فى الوحدة لا فى التجزئة ، والقوة والرفاهية فى إدارة عقل واحد لملك متنوع الموارد ، متنوع السكان ، يملك أقصر الطرق بين الشرق والغرب .

ففى جنوب الوادى ، كون من الإمارات والشياخات والجماعات وطنا جديداً ، وهيأ لذلك الوطن وجوداً ومستقبلا بين مناطق الأحباش والقبائل البدائية ومناطق الزحف الأوربى الذى كان قد أخذ فى الاقتراب نحو قلب القارة الإفريقية من الأطراف الساحلية ، ثم ربط هذا الوطن بحياة الإنسانية ، فكانت مصر الصلة فى ذلك الربط . هذا ما قدم محمد على وهذا ما قدمت مصر ، صنع الله له ولها جزاء ما قدما . وأخرج البحار العربية من سكونها وركودها فعادت تجرى فيها الحياة وأضحت شريانا من شرايين الحياة التجارية العالمية ، وأعاد لمصر وللشام ما كان بينهما من الاتصال التاريخى التليد . وتصور لهذا كله قواما وكيانا ، واستعد لأن يدخله فى النظام العام على أساس تضامن الأمم وتعاونها لجلب المنافع ودرء المفاسد . وكان فى هذا سباقا .

ولكن الحلول السلبية تغلبت على الحلول الإيجابية . والمنافع العاجلة على الخير الدائم ، ونالت معاول الهدم من البناء ما أرادت ، ولكن بقى من ذلك المشروع العظيم الصرح الشامخ الذى أقامه فى مصر ، نستخرج من رسومه وأجزائه وأهدافه ما نستكمل به تصوير كل ما قدر وكل ما اعتزم . ذلك الصرح غربى شرقى ، هو غربى فى قبوله الفكرة الحديثة ، فكرة الدولة التامة السلطان يخضع لها الجميع وتتكفل بواجبات الدولة فى العصر الحديث، شعارها — بل وروحها — السماحة ، لا لأنها تجردت من الصفة الدينية أو قصرت دائرة عملها على المصالح الدنيوية أو قامت على نوع من الفصل بين الدين والسياسة ، بل كان ذلك لاعتبارها أن الحياة الاجتماعية فى العصر الحديث قد تطورت تطوراً يسمح عمليا بقبول فكرة التعاون لتحقيق أغراض سياسية واجتماعية بين أناس يختلفون دينا ، ولكن تربطهم روابط الوطنية . غربى فى أدوات السلطان : الإدارات الحكومية الكبرى والصغرى المعروفة . غربى فى كيفية إعداده للفنيين اللازمين للمصالح العامة ، فى تكوين الصفوة من الرجال ، تلك الصفوة التى عمل عملا متواصلا على تنشئتها وتربيتها .

وهو بعد شرقى صميم فى طبيعة العلاقة بين الحاكم وأعوانه فقد كانوا جميعا على اختلاف أصولهم يتفقون معا فى شيء واحد، فى أنه لهم هو ولى النعم . تعهدهم بالتعليم ، وقلدهم المناصب ، وعهد إليهم بخططه ، ونفث فيهم من همته وآماله ، وأنعم عليهم ورفع قدرهم . وقد وضع علاقته بهم لا على أساس السيد والمسود ، بل على أساس آخر : علاقة الأب بأبنائه، يأخذهم باللين أحيانا ، وبالشدة أحيانا أخرى ، كما يأخذ الأب أبناءه باللين والشدة وهذه أوامره الحكومية قل أن تجد لها شبيها فى أوامر الحكومات . فكانت فى جمعها للنصح والترغيب والترهيب وضرب الإمثال والأشارة إلى أن منفعة الرعية ومجد الوطن متوقف على ما نيط بعمال الحكومة أداؤه صورة صادقة لشخصية هذا العاهل الكريم وهذه أيضا طريقته الادارية ،

جعل لكل شأن من الشئون العامة ديوانا ، وكان لا يتخذ قراراً فى مسألة ما إلا بعد أن يستمع لآراء المجلس المختص بها . ذلك لأنه لم يكن حاكما فحسب بل كان طوال مدته مربيا ومكونا للرجال . تحدث مرة إلى رؤسائهم فى اجتماع تاريخى فقال : « إن المماشاة والموافقة فى الأمور المضرة بالمصلحة والأصول الموضوعة من أعظم الجرائم ، فيجب تجنب ذلك ، حتى إذا كنت آمر أحدكم شفاها أو تحريراً بقولى له : « أجر المادة الفلانية بهذه الصورة » وحصل منه اعتراض على وذكرنى وأفادنى شفاها أو تحريراً بأن المادة المذكورة مضرة فهذا يكون منه عين ممنونيتى الزائدة » .

لقد عمل محمد على وجيل محمد على للمستقبل . حرم نفسه وحرم رعيته من أكثر ما غله الكد المتواصل فى الزراعة والصناعة والتجارة ، فكان شأنه فى ذلك شأن المشتغل بعمل صناعى ينفق ربح كل سنة فى الإضافة والابتكار ولا يمسك منه إلا نزراً يسيراً ، وهذا سر تمكنه من القيام بكل ما قام به بدون أن يستدين . وقد كان معاصروه يتوقعون لمصر الإفلاس سنة بعد أخرى ، وفى كل سنة لا يحدث شىء مما كانوا يتوقعون . قال مرة لزائر أجنبى : « انظر ماذا ترى حولى من هيئة الباشوات ، لم يبق منها الكثير ، بعض القواسين ذوى العصى المفضضة ، وبعض الدواوين . ولكن كان نقش خاتمى دائما محمد على » .

عمل للمستقبل وكان شر ما يزعجه شبح الزوال ، فكانت الحسرة تملأ نفسه والأسى يتقطع فؤاده كلما تقدمت به السن أو لاح هذا الشبح ، زوال ماذا ؟ زوال دور الصناعة والأساطيل والمصانع والمدارس والمعاهد والجسور والقناطر ، زوال كل ما أنشأه هو وشعبه بعرق الجبين بل وبالدم . أيستطيع أن يسمح بانتقال هذا التراث لأيدى الإهمال والتبديد والتخريب ؟ كلا ، لن يكون ذلك . فقد سرت أفكاره العمرانية فى العقول ، وتحولت من برنامج رجل إلى برنامج أمة بأسرها واتسعت معانى العزة والكرامة والشرف لتفيد عزة الوطن وكرامة الوطن وشرف الوطن .

ولن يزول شيء فقد خلف لمصر أبناءه الملوك وجيلا مطواعاً من الجنود والفلاحين .

ولقد قال فى آخر أيامه مخاطبا رجاله :

« سيحصل لكم من عائلتى ما حصل لكم منى ، ما دامت الحياة وقتا فوقتا » .

ونحن نقول : وسنكون لأبنائك الملوك ، ما كان آباؤنا لك ، دعوتهم فأجابوا ، وحملوا راية الجهاد فى الحقل والمصنع ودار الصناعة ودار العلم وقدتهم من نصر إلى نصر، بين السهل والحزن، فى السودان ، والجزيرة العربية ، والمورة وفلسطين ولبنان وسوريا والأناضول . لقد شقوا لنسعد وكدوا لنهنأ .

وها نحن فى يوم الاحتفال بذكراك الخالدة على مر الدهور ، أيها العبقرى الذى لم يعرف معنى النصب، نجدد العهد لسرك ووصيك ، الملك المفدى ، تنطق ألسنتنا بما فى قلوبنا : لبيك لبيك .

ترجمة كلمة حضرة صاحب العزة ابراهيم شاهين بك

أمين عام الجمعية

من اللغة الفرنسية للعربيـــة

الأمة المصرية وتولية محمد على

ياصاحب المجد النبيل :

عندما زرت قصر الجوهرة بالقلعة وجدت منقوشا على جدار مدخل البهو باللغة العربية هذه الكلمات التى قالها ساكن الجنان الرجل العظيم محمد على الذى نحتفل اليوم بذكراه وهى :

« إنى لم أبلغ ما بلغت إلا بسمعتى بين شعبى وبمشيئة شعبى »

وموضوع حديثى اليوم هو تفسير تاريخى لتلك الكلمات الخالدة لمؤسس الأسرة الملكية الكريمة والجد الأكبر لجلالة مولانا الملك المحبوب فاروق الأول .

١

ما من شك أن حياة الشعوب كحياة الأفراد تتدرج من شباب مزدهر وثاب إلى نضوج مثمر ثم إلى شيخوخة يلحقها الانحلال والفناء . ولكن يوجد من الأمم من قاومت تقلبات الدهر رغم قوة صدماته المميتة القاتلة ، ومن هذه الأمم مصر . إذ كثيرا ما أصيبت فى حضارتها من هبوط وصعود وكثيرا ما أصابتها المحن والأحداث ولكنها تنهض بعد كل ذلك بقوة ما احتفظت به من وحدتها واستقلالها وتقاليدها ونظمها وقوانينها التى هى كامنة فى قرارة نفسها لآلاف من السنين إذ قد كونت فيها وعيا قوميا وإلهاما باطنيا لم نعهد

له مثيلا فى الشعوب الأخرى ، وهذا برهان ساطع على ما تتمتع به مصر من قوة وحيوية لازمتها طيلة تاريخها المجيد .

وهذا هو سر ما يحدث فيها من انقلابات وتطورات .

* * *

إن الأمة روح من أمر الله لاتفنى لأنها تختزن فى كمين جوهرها الجهود الماضية الطويلة وأثر التفانى والتضحية ولم يذكر لنا التاريخ القديم أمة بهذه الصفات إلا أمة واحدة هى مصر . فأثينا واسبارتا وطيرة وقرطجنة كانت بلدانا متفرقة تتنازعها الأهواء وكل منها فى نواح صغيرة محدودة ، أما بلاد الغال وإسبانيا وإيطاليا قبل اندماجها فى الامبراطورية الرومانية فكانت تشمل مجموعة من شعوب مختلفة لا تنتظمها رابطة اجتماعية واحدة . أما أشور والعجم وإمبراطورية اسكندر الأكبر والإمبراطورية الرومانية فلم تكن أمما بالمعنى الصحيح لأنها طوت تحت لوائها شعوبا مختلفة متباينة الجنسية متنافرة الأغراض .

إذاً مصر عميدة الأمم ظلت مدى أربعة الآف من السنين على الأقل الأمة الوحيدة المتآلفة .

قال بوسويه فى كلام له عن المصريين : « هذه الأمة الثابتة القوية قد عرفت أسرار السياسة التى ترمى إلى تيسير سبل العيش والرفاهية بين أفرادها . فكما أن الفضيلة هى أساس كل مجتمع فقد تمسك المصريون بأهدابها فكانت قوانينهم سهلة بسيطة مؤسسة على العدل والإنصاف ونشر الوحدة والتآلف بين أفراد الشعب . وكان من أخص الصفات التى انطبعت فيها روح المصريين أجمع هى احترامهم وحبهم لوطنهم . وفى الواقع فإن مصر هى أجمل بلاد العالم بما وهبتها الطبيعة من خصوبة فى أرضها وبما اكتسب أفرادها من علم ومعرفة فقد ازدهرت وازدانت بعناية ورعاية ملوكها العظماء » .

وكان من أنبل النظم التى اتبعها المصريون هو تكوين أفراد الشعب روحا وعقلا وجسما سواء أكانوا رجالا أم نساء أم أطفالا وذلك بنشر التربية البدنية الصحيحة والتربية الخلقية وما يتبع ذلك من تهذيب للعقول والقلوب وسلامة التكوين .

وقد فطن العالم القديم لتلك الفضائل التى يتمتع بها المصريون فسعى أمثال أورفية وهو ميروس وبيتاغورس وأفلاطون وأرسطو ولوكرج وسولون وغيرهم إلى أن يتزودوا من رحيق العلم والحكمة فى مصر نفسها .

وقد زار مصر سيدنا إبراهيم وباركها — وكذلك يوسف الصديق — ونشأ فيها موسى الكليم طفلا وشابا وكهلا — وقد ارتشفوا جميعا من مناهل معارفها وحكمتها .

ومن هذه الأرض المباركة نبت جذع تفرع منه ثلاث شعب هى أساس بلجوهر الأديان الثلاثة التى تهيمن على العالم الآن .

* * *

إن مصر بفضل وحدتها وصولتها كانت تتمتع بقوة ممتازة حتى وصفها جيرانها بأنها قادرة على أن تمد حدودها كما تشاء ولكنها فضلت أن تعيش بسلام لحبها للعدل والإنصاف طيلة ألفى سنة على الأقل ، فكانت دولة الفكر والمفكرين يحكمها رجال — كما قال رينان — امتازوا بالعلم والحكمة الروحية والخلق السياسى القويم .

وبفضل ذلك السلام الطويل قفزت مصر إلى ذروة المجد والحضارة التى عرفت عنها منذ عهد الملك مينيس إذ اتفق العلم مع الدين فى ذلك الوقت وصارا ندين متآلفين وتعاونا على إيجاد أعظم مدنية خالدة فى التاريخ .

وقد قال أفلاطون عندما زار مصر ورأى كل ذلك :

« ما أسعد الشعوب إذا كانت الفلاسفة ملوكها أو إذا كانت ملوكها قادة للحكماء » وذكر فى أقدم كتاب من مخطوطات البردى وهو ما ترجمه شيشرون بالكلمات الآتية :

« أن أفضل الأشياء عند الله أقدمها »

* * *

لقد هذب المصريون النيل بوسائل تجلت فيها آيات الفن والمعرفة وبعد النظر ، فأوجدوا مصر ، ولأجل الاحتفاظ بهذا التراث العظيم الذى أصبح وطنا لهم ، وخشية من أن يوجد أمثال « البوكرك » البرتغالى المشهور بمشروعه وهو تغيير مجرى النيل من بلاد الحبشة إلى البحر الأحمر والقضاء على مصر ، فقد اتبعوا منذ القدم سياسة حكيمة بعيدة النظر هى امتلاك مجرى الوادى ، وهذه السياسة الحكيمة قد اتبعت إلى الآن .

* * *

وقد عدل المصريون عن عزلتهم بعد غزو الهكسوس، وهاجر البعض منهم لخارج بلادهم وهم مزودون بالمعرفة والحكمة وبقوة اعتقادهم فى الفضائل الروحية والجسمانية ، فظهروا فى سوريا وبلاد بين النهرين وبانتشارهم فى تلك الأرجاء ظهر عصر حديث فى تاريخ الشرق القديم وحضارته، إذ قد أضاء على شعوب آسيا حتى حدود الهند قبس عظيم من حضارة المصريين القدماء.

وبعد أن أفل نجم الرومان ظهرت الديانة الإسلامية وكان أساس تعاليمها الاعتراف بحقوق الإنسان ، وقد وجدت أرضا خصبة لنشر تعاليمها فى جميع الأرجاء التى تأثرت بالحضارة المصرية القديمة، وبذلك أصبح الإسلام متمما لها ومهذبا لتعاليمها حتى الفتح العثمانى فى عهد السلطان سليم سنة ١٥١٧ حيث كانت مصر مهد المدنية والحضارة لأكثر من ستمائة عام .

٣

ولكن فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر هبطت مصر إلى هاوية الحضيض والفوضى فاندثرت الصناعة والتجارة وفقدت مصر كل اتصال ثقافى بينها وبين الأمم الأخرى واحتملت بعد ذلك أزمة هى أخطر

ما يصيب الأمم من حادثات الدهر وهى إغارة دولة أجنبية عليها وغزوها واغتصابها .

كانت مصر فى ذلك الحين تابعة للدولة العثمانية التى كان قد ذبل مجدها وابتدأ اضمحلالها وكانت مهددة من كل صوب بالفناء وكان الخليفة العثمانى عاجزا ضعيفا لا تتوافر فيه شروط السلطة التى يجب أن يتصف بها كل أمير إسلامى من حيث العدل بين الرعية ودرجة الثقافة اللازمة للهيمنة وإدارة شؤون الرعية وعلى الخصوص القدرة والشجاعة التى تكفل له المقدرة على حماية أرض الدولة الاسلامية من كل اعتداء أجنبى .

أما المماليك الذين كانوا هم حكام مصر الحقيقيون وكانوا مشهورين فيما مضى بالشجاعة والكرم فقد تواطئوا مع الأجانب لإعادة ملكهم الزائل .

لذلك كان المستقبل مظلما وكان من آثار الحملة الفرنسية أن ابتدأت المسألة المصرية تبرز للوجود فى الوقت الذى كان مبدأ تقسيم الشعوب الصغيرة بين الدول الكبرى الأوربية قد استهوى العقول حيث بدئ بتطبيقه على بولونيا ثم على الإمبراطورية العثمانية .

كان جلاء الجيوش الفرنسية عن مصر فى أغسطس سنة ١٨٠١ وكذلك رحل عنها الجيش الإنكليزى فى ١٤ مايو سنة ١٨٠٣ ولكن لم يكن رحيلهما دون النظر دائما إلى الرجوع إليها والاستيلاء عليها .

أما إنجلترا فإن استعمارها للهند قد أحدث انقلابا فى سياستها وزيادة على ذلك فإن الحملة الفرنسية فى مصر قد أثارت اهتمامها نحو مصير تلك البلاد .

وقد رأت أنه لضمان سلامة الهند يجب أن تكون الملاحة فى البحر الأبيض المتوسط حرة مأمونة . ولما كانت إنجلترا لا تمتلك إلا المنفذ الغربى لهذا البحر وهو جبل طارق فقد عملت على الاستيلاء على منفذه الشرقى وهو مصر ، وقد أدلى اللورد كستلريج بتصريح فى هذا الصدد حيث قال :

كل المواقع الموصلة لطريق الهند يجب أن تكون لنا وستكون لنا . »

أما فرنسا فكان يحكمها القنصل الأول بونابرت الذى قد هزته آثار من الروح الرومانية القيصرية منذ سنة ١٧٩٧ فأراد أن يحقق ما تصبو إليه فرنسا من عظمة ومجد. فى ١٨ فبراير سنة ١٨٠٣ استدعى اللورد ويتورث ممثل انكلترا فى فرنسا لمقابلته فى قصر التويليرى وقال له فى حديث مشهور: « إن مصر هى ملك لفرنسا إن لم يكن عاجلا فآجلا وذلك إما بسقوط الامبراطورية العثمانية أو بمفاوضات معها » .

وصرح تاليران وزير خارجية فرنسا بعد ذلك فى كلمات وجيزة .

«إن مصر كانت فى السابق إيالة للجمهورية الرومانية لذلك يجب أن تكون أيالة للجمهورية الفرنسية أن التجارة فى البحر الأبيض المتوسط يجب أن تكون بين يدى الفرنسيين كلية .

« وأن البحر الأبيض المتوسط يجب أن يكون فرنسيا »

وقد دفع هذا التنازع بين مطامع الدولتين إلى تجديد التطاحن بين فرنسا وانجلترا ما يقرب من مائة عام — ولم ينتهى ذلك التنافس بينهما إلا بعد اتفاقية ٨ ابريل ١٩٠٤ التى كانت مقدمة للحرب العالمية الأولى .

ولكن الشعب المصرى هذا الشعب النبيل ذو المجد التليد الذى صقلته آلاف السنين وهو قائم على الأرض التى اتخذها موطنا له أظهر من قوة الاحتمال ما أعجز تقلبات الدهر وصولة الإنسان ، فهو ينظر إلى الحياة نظرة فلسفية حكيمة توارثها عن أجداده الأمجاد فسواء لديه الخير أو الشر والرخاء أو القحط ما دام النيل من منبعه لمصبه ملكاً له . كما وإنه ليقابل شظف الحياة بنفس الروح التى يقابل بها رغدها وأنه ما دامت آثار مجد آبائه الخالدة ماثلة أمام عينيه فأنها برهان ساطع أبدى تذكره بمجده القديم وأن فى استطاعته أن يعيد هذه العظمة وذلك المجد .

وأذكر فى هذه المناسبة أنه قبيل الثورة الفرنسية الكبرى زار مصر العالم فولنى وعند ما عاد لفرنسا أوضح للرأى العام الفرنسى مسألة امتلاك فرنسا لمصر واشترط لتحقيق ذلك قيام ثلاث حروب يجب أن يكون النصر فيها حليفا لفرنسا :

الأولى : ضد الأتراك .

الثانية : ضد الإنكليز .

الثالثة : ضد المصريين أنفسهم . ومن رأيه أن الحرب ضد مصر أخطرها جميعا لأنه لن تتمكن فرنسا من الاستيلاء على مصر بالمعنى الصحيح إلا إذا أفنت سكانها عن بكرة أبيهم وأعدمتهم من الوجود، وقد فسر شجاعة المصريين بقوله :

« لو كانت توجد رجال قوية المراس شديدة البأس فهؤلاء الرجال هم الذين عاشوا فى كفاف من العيش وتعودوا على آلام الحياة . فالمصريون قساة فى غضبهم أشداء فى صراعهم ولو من قرية لأخرى . وحوش ضارية إذا ثلم عرضهم . كل ذلك دليل قاطع على أنه ينقصهم أن توجه تلك القوة حتى تصبح بأسا شديداً ذا صولة وسلطان » .

وهذا اعتراف صادق ووصف لخلق هذه الأمة الجديرة بالقيام بمعجزات الأعمال بشرط أن يكون على رأسها من يوجهها توجيها صحيحا ويرشدها نحو الغرض المقصود الصالح فيصل بها إلى قمة العظمة والمجد .

٣

فى ذلك الظرف العصيب ومصر قائمة على مفترق الطرق ومصيرها بين يدى القدر كانت تترقب عاهلا عظيما توافرت فيه شرائط الحذق وقوة الارادة. وفى استطاعته أن يهيىء فى سنين معدودات لشعبه آفاقا جديدة بما له من بينة من حقيقة روح العصر ومطالبه فكان من محاسن الصدف ومن نعمة الله على مصر أن هذا العاهل كان فى ذلك الوقت موجوداً بينهم وهو من أمثال صلاح الدين وبيبارس ، رجل سياسى ، رجل نزال وحرب ، رجل ولد مصلحا يعمل من جانبه على استخدام الظروف للصالح العام . فما إن ظهر حتى تجاذبت الأرواح وتقاربت الأغراض فتفاهمت النفوس وامتزجت النوايا لإعادة مجد مصر كما كانت عليه قبل سنة ١٥١٧

وهذا ما يفسر الانقلاب العظيم الذى حدث فى يوم ١٤ مايو سنة ١٨٠٥ إذ نهض ممثلو الأمة المصرية وعلى رأسهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم ساعيين إلى محمد على معلنين بأنهم من ذلك اليوم لا يقبلون حكم الوالى ممثل الدولة العثمانية فقال لهم : « ومن تريدون إذاً ؟ » فأجابوا : نريدك أنت للحكم فينا طبقاً للشريعة الغراء ولما نعهده فيك من تقوى وإتجاه إلى الخير » فقبل وألبسوه حلة الولاية بين مظاهر ابتهاج الشعب وتهليله .

حين ذلك بعثت وطنية الشعب الكامنة فى قلبه فتآلفت قلوبهم وازدهرت الوطنية مع هذا العاهل العظيم وهبت على مصر روح الوعى القومى مع ما يلازمها من التضحيات والثبات وما يترتب على ذلك من أعمال متممه لانقلاب ١٤ مايو سنة ١٨٠٥ كما سيأتى القول :

أولا : أما الوالى المعين من قبل السلطان فقد مكث فى القلعة فى القاهرة وأعلن « أنه أولى له أن يدفن تحت أنقاض القاهرة هو وجيشه من أن يعزل بفئة من الفلاحين » .

لذلك ظهر شبح الحرب بين الوالى والشعب ، وتسلطت الفكرة حتى فى قلوب المسالمين منه ، وتزود هؤلاء « الفلاحون » حتى الفقير منهم بالأسلحة بعد أن باعوا ملابسهم لشرائها وصمدوا أمام انصباب القنابل عليهم من القلعة وردوا هجمات القوة المقيمة فيها وحاصروها حتى يوم ٩ يوليه حيث وصلت رسالة من الباب العالى بالموافقة على من اختاره الشعب للولاية وبذلك نزل السلطان على إرادة الأمة المصرية .

ثانيا : وفى دمنهور أراد الألفى بك الإستيلاء على المدينة إنتظاراً لمجىء القوات الإنكليزية للأراضى المصرية من الإسكندرية ولكن هذه الخطة فشلت أمام ثورة الأهالى ضده بعد أن استمر المماليك وعلى رأسهم الألفى بك مدة ثلاثة شهور فى مجهود ونضال غير مثمر وأنسحبوا بعد أن أضمحلت نفسيتهم وضعفت قوتهم وقصدوا الوجه القبلى مغلوبين على أمرهم .

ثالثا : وأخيراً فى ٢١ مارس سنة ١٨٠٧ نزلت حملة إنكليزية فى ميناء

الإسكندرية وأستولت عليها وأتجهت إلى رشيد بينما كان محمد على منهمكاً فى القضاء على المماليك فى صعيد مصر ، ولكن شجاعة الأهالى وبسالة الحامية المصرية أرغمت الإنكليز إلى الرحيل من الأراضى المصرية فى ١٤ سبتمبر .

بعد ذلك تفرغ محمد على إلى مشروعاته

إن إنقلاب ١٤ مايو سنة ١٨٠٥ لهو إنقلاب فذ فى تاريخ مصر — فمن ذلك اليوم بدأت نهضة مصر الحديثة — فهو يوم عظيم يجب أن تحتفل به الأمة المصرية سنوياً لذكرى ذلك الحادث العظيم وإجلالا لهذا العاهل الذى عرف كيف يستخدم مواهب ومقدرة الأمة التى سلمته زمامها دون قيد ولا شرط فأعاد إلى مصر عهد نهضتها ولولا التدخل السياسى الأجنبى ورجاله الذين قضوا حياتهم فى الإخطاء التى أدت بالعالم إلى مصيره الحالى الآن لحلت المسألة الشرقية لصالح الشرق بل ولصالح الغرب والعالم أجمع .

كلمة القائمقام عبد الرحمن زكى

مدير المتحف الحربى وعضو مجلس إدارة الجمعية

ياصاحب المجد النبيل :

لم يشهد الشرق الوسيط ، فى تاريخه العريق ، مصلحا تألق اسمه فى سمائه مثلما تألق نجم محمد على ، ولم ير قائدا وحد أهواءه وجمع أشتاته على غرار ما جمعها ووحّدها محمد على .

فمحمد على — ولا ريب — أعظم المصلحين الذين برزوا فى هذا الركن من العالم القديم ، وأظهر القادة المحنكين الذين خلدت ذكرياتهم هذه البقعة من المعمورة .

وكيف لا ! وقد أحدث أكبر انقلاب اجتماعى وسياسى وعلمى وعسكرى على ضفاف وادى النيل ، مذ أشرق عليه نور الإسلام ، ودبت بين جنباته تعاليم القرآن .

فهذا الرجل المثالى ، الذى تحتفى مصر اليوم بذكراه ، لم يقتصر شأنه على أنه من كبار الفاتحين الذين أسسوا الإمبراطوريات الكبرى ، ولم يتوقف أمره لدى أنه أحد أصحاب المذاهب الاجتماعية التى قلبت أسس التفكير ، بل كان صاحب رسالة نبيلة أيقظ بها نفوس الأمة الإسلامية بعد ما خيم عليها الركود مئات السنين .

أجل ! إن الفخر الذى استحوذ عليه هذا « البطل » فى ساحات القتال وإن الامجاد التى تلتصق باسمه فى ميادين النضال ، لا تكاد تذكر بجانب ما له من الأيادى البيضاء فى بعث الشعب المصرى من رقدته ، وإحياء وادى النيل من غفوته .

فحينما تبوأ ذلك العاهل العظيم أريكة الحكم فى مصر ، رأى أمة منحلة

بادية الهزال ، تنقصها أسباب الحيوية ، وتعوزها مطالب القوة . رأى أمة ملايينها الثلاثة تعيش مثقلة بأصفاد الفقر والمرض والجهالة . فوضع قبالة باصرتيه أن ينفض عنها هذا الرداء البالى الذى خلعته عليها الأيام ، ويصقل الصدأ المزمن الذى أضفته عليها العهود .

وقلّب المصلح الخالد الفكر فيما هو بصدده ، وانتهى به الأمر إلى أن أفضل وسيلة لأن يبلغ بهذه البلاد أوج الرقى والتقدم أن يبعث الروح العسكرية فى صدور أبنائها ، وأن يستعيد النعرة الحربية من مخلفات ماضيها .

فليس سوى الروح العسكرية هى التى تلهب العزائم ، وليس سوى الروح العسكرية هى التى تحض على المعرفة ، وليس سوى الروح العسكرية التى تجتث بذور الضعف والمذلة ، وليس سوى الروح العسكرية التى تخلق أمة قوية جديرة بالبقاء بين الأمم .

لقد أدرك هذا العبقرى أن الجيش مدرسة الشعب ، ففى ظل هذه المدرسة يعالج أسباب الضعف الجثمانى ، وفى ظل هذه المدرسة يعالج أسباب الضعف الخلقى ، وفى ظل هذه المدرسة يعالج أسباب الضعف العلمى .

وتحقيقا لهذه الغاية التى ينشدها ، وعلى ضوء تجارب الأسلاف ، شرع فى انتهاج خطواته ، مستلهما من الماضى عبره وعظاته .

فلكى يوفر للجيش نخبة متعلمة أسس المدارس ، ولكى يهيىء للجيش حاجياته فتح المصانع ، ولكى يزود الجيش بشبيبة سليمة أقام المشافى .

وأكثر من ذلك ، أنه شق الطرق ، وحفر الترع ، وبنى الحصون ، وشيد الأسطول ، وأقام المطابع ، وأنشأ معامل الورق ، سواء لتلبية مطالب الجيش الثقافية والاقتصادية أو انصياعا للدواعى الاستراتيجية أو العمرانية .

وعلى عاتق الجيش ينبغى أن تقوم النهضة ، وعلى أكتاف رجاله يتعين أن تنتشر الحضارة ، وفى ضجة معاركه يشرق المجد ، وفى ظل علمه تستتب السيادة .

ولذا لم يكن عجبا حين أضفى على جيشه ما يضفيه البستانى على نبتته ،

فيغمره بفيض دافق من رعايته ، ويغدق عليه من نبع توجيهه وإرشاده .

رأى صاحب الذكرى أن الروح الحربية لا يكفيها تدريب منظم أو سلاح مستحدث ، وإنما تتطلب روحا عالية هى التى نسميها اليوم « الروح المعنوية » . فلا تقاس قوة الجيش بأسلحته ورجاله مثلما تقاس بمعنويته ، فالروح المعنوية هى العامل الغلاب سواء فى أوقات الحرب أم فى حلقات السلم .

وفى هذا النطاق بذل ما تسنى له من البذل لكى يسمو بروح شعبه إلى أعلى ما يتطلع إليه قائد يبتغى أن يحرز أسباب الظفر ويتملك أزمة النصر .

فلم يدخر جهدا فى استثارة حماسة بنى مصر ، ولم يتوان عن أن يثير حرارتهم ، ولم يتهاون فى طرق أبواب قلوبهم . أو ليس هو القائل : « لكى ينصاع لك المرء ينبغى أن تستولى على عواطفه »

وطالما حدثهم عن آبائهم وأجدادهم ، حدثهم عن بطولاتهم وأعمالهم ، حدثهم عن ذكرياتهم وأمجادهم . ردد على أسماعهم أسماء قوادهم وملوكهم رمسيس وتحوتمس وصلاح الدين ، ونشر تحت أبصارهم معارك قادش ومجدو وعين جالوت .

حدثهم عن الإمبراطوريات التى أقاموها ، حدثهم عن الحضارات التى نشروها ، حدثهم عن الفتوحات التى ولجوها .

وبذا استطاع محمد على أن يصهر معدن الشعب المصرى من بين الأدران التى رانت عليه بفعل الخمول المتراكم ، ويحرك المشاعر الراقدة التى كان قد أصابها شلل التقاعد . ويثير بين جوانحهم روح الزهو والفخار ، وينفث فى صدورهم روح القدرة والاقتدار ، ويقول لهم : « أولم تكونوا يوما حملة مشاعل الحضارة والدنيا من حولكم تهيم فى بيداء الجهالة ؟ أو لم تكونوا يوما أصحاب الصولة والسيادة وغيركم سادرون فى مجاهل الخنوع والمذلة ؟ أو لم تجيشوا الجيوش وتحسموا المعارك وسواكم لا يزال فى ضلالة الهمجية ؟ »

وبمثل هذه « المقويات » الفعالة تهيأ له أن يصنع المعجزة ، ويبث

الدم فى الشرايين ، ويجرى النبض فى القلوب ، وتمتلىء الرءوس بالعقول . وتمسى قولته « عجبا ! أليس ما كان فى وسع الآباء يكون حتما فى استطاعة الأبناء ؟ » حكمة جامعة وموعظة بالغة جديرة بأن تكتب من النور على صفحات الصدور .

وهنا يسائل نفسه : « هل استقرت الروح الحربية على هذا النسق؟ » ويسكن لحظة ليعاود الإجابة قائلا : « لكى تستقر الروح الحربية فى عروق الشعب ينبغى أن أكون القدوة » ولعل البعض يستفسر عن الكيفية فلا أحملكم مشقة التفكير ، وأقول إنه وضع نفسه فى طليعة هذا الجيش الذى أسسه ونذر له قلبه وروحه ، ومن بعده أبناؤه وخلفاؤه . فحمل معه مشقاته ، وشاركه آلامه وآماله ، وسار معه إلى ميادين القتال ، لا يخشى بأس الحرب ، ولا يستنكف تضحية الروح . بل كم بذل القرابين من أعز أبنائه وأخلص رجالاته ، فاختلطت دماء الجند بدماء القادة ، وقد ألفت بينهم مساواة التضحية والشهادة .

ولم تنقص محمد على — على شدته — تلك المرونة التى يتحلى بها عظماء الرجال وكبار قادة الأمم . لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف . فقد ارتأى بثاقب بصره حين كان ابنه إبراهيم يتولى أمور تدريب الشبان فى الريف أن هناك شيئا فى نفوس فريق من الأهالى فى بعض المديريات . فدرس الأمر بحكمته ووجد أن حالتهم الزراعية لا تسمح لهم فى ذلك الوقت بتلبية هذا الطلب . فبعث إلى ابنه إبراهيم بكتاب ملؤه الحكمة يذكر فى طواياه الاختلاف بين الشعب المصرى والشعوب الأوربية التى عرفت نظام الجندية . ويسأله أن يجند العساكر حسبما يتيسر وأن يستخدمهم على نحو ما يتطلبه الموقف وأن يوفق بين المصلحة والحالة !

ولكى يغرس العاهل الكبير فى نفوس ضباط الجيش الصفات النبيلة ويبث بين جوانحهم السجايا القويمة التى تتألف من نسيجها العسكرية الحقة ... كان يوجه بين حين وآخر إرشاداته ونصائحه ليعمل الضباط بها .

يقول محدثا بعض ضباطه عندما وصل إلى سمعه ما يشين النظام العسكرى :

« لا تسلكوا السبل الملتوية بتجويز الأوضاع المنافية لأصولكم ونظمكم وإن وجد فيكم من لا يصغى للقول ويسلك هذا السبيل الوعر فلا تقبلوا أن يتطرق الخلل إلى النظام بسبب مخالفة واحد منكم لأن الجيش لم يوجد إلا بعد تعب كبير ومشقة عظيمة . وانبذوا من كان على هذه الشاكلة من بين ظهرانيكم وإن كان صاحبكم أو من أقاربكم حتى ولو بلغ الأمر أن كان أبا لكم أو أخا » .

وعلى هذا الغرار عالج محمد على نفوس رجاله ورعيته . فجرى على أن يسدى إليهم النصيحة بعد الأخرى ، ويأخذ بيدهم الفينة تلو الفينة . فهو لا يفتأ يبعث بإرشاداته إلى رجالاته لكى يكونوا على بينة من خطواته ويقتفوا آثار توجيهاته . فمثل هذه الإرشادات والتوجيهات كانت مصابيح هداية فى السبيل المستحدث ، يمضون على ضوئها نحو الهدف المرموق .

أما التشجيع أو بمعنى آخر « الدافع » الفعال فى مجرى التطور فقد تشبث به عاهلنا الخالد ، وطالما استخدمه فيما يعود على الروح الحربية بالقوة والعزم . أوليس التشجيع هو اللهب فى الموقد !

ولأثر التشجيع الذى يرتد على الفرد والجماعة ، ومدى ما ينالهما من نتيجة ، كان لا يتردد فى أن يغدقه على من يستأهله من جنده وقادته .

فقد بلغه أن إحدى وحدات الجيش قد أبلت بلاء حسنا ، فيبادر بالكتابة إلى ناظر الجهادية أو بالمعنى الراهن وزير الحربية يقول له :

« إن الشجاعة الحقة التى أبلاها الآلاى الثانى ، وما أظهره رجاله فى ميدان الحرب من البسالة والبطولة ، تطلب أن يعرف الجميع عنهم أنهم حملة أعلام النصر والفخار . لذلك رأينا أن يصنع للآلاى علم خاص ينقش عليه بالقصب الأصفر عبارات التمجيد إعلانا لتفوقه » .

وبهذه الروح الحربية التى أشاعها محمد على فى وادى النيل ، استطاع أن ينازع أكبر دول أوربا رسوخا فى الحضارة والسلطان ، ويقيم دولة قوية

مترامية الأطراف طالما صارعت البلدان .

ولكن هذه الروح التى حولت مصر من أمة مهملة إلى أظهر دولة فى الشرق الأوسط ، وأنشأت جيشا من أظهر جيوش العالم تسليحا وقوة ، وشيدت شهرة ومجدا لم يكن لهما نظير من قبل ، لم يكن هدفها الغزو قدر ما كان قوامها الإصلاح والتعمير .

وخير دليل على ذلك ما اعترف به معظم المؤرخين من أن جيش محمد على لم يكن آلة الفتح والنصر والسلطان ... فحسب ، بل كان وسيلة لنشر العلم والمعرفة وبث الحضارة فى جنوب هذا الوادى .

فطالعنا فى البلاد نهضة صناعية ، ومثيلتها زراعية ، وأخرى تعليمية ، كان عمادها رجال الجيش ، سواء فى عهده أو فى عهد خلفائه .

وبروح محمد على وأسلوبه فى الحكم والإدارة ونوع التفكير وسعة أفقه وبعد نظره .. ظفرت مصر بنهضة عظيمة جنينا ثمارها من بعده .

فلما انتهت فتوحاته كان من السهل أن يتحول رجال الجيش إلى أعمال السلم الهادئة . فعول على الانتفاع بهم فى مشروعاته الزراعية والاقتصادية والعمرانية . وهكذا حول أسنة رماح جنوده البواسل إلى المحاريث وجداول المياه ومعاهد التعليم ، فكنت ترى رجال الجيش منبثين فى جسد الأمة المصرية انبثاث الدم فى الشرايين . فمنهم المهندسون والأطباء والقضاة والمدرسون ورجال الإدارة بل ورجال المصانع . كنت ترى جيش محمد على فى كل مكان ، لأن تربية رجاله جعلتهم خير من يصلحون للقيام بالأعباء فى متفرق الأعمال .

ألا تصبح بعد ذلك حكمة محمد على قدوة واضحة الأثر .. وهى : « إن الجيش مدرسة الشعب فى كل زمان ، وإن نهضة الشعوب لا تحققها إلا الجيوش السليمة البنيان » ؟

ياصاحب المجد النبيل :

إذا كان الماضى أسعد أجدادنا بأن يحظوا برعاية محمد على الكبير ،

فقد أسعدنا الحاضر بالمثول فى عهد حفيده العظيم ، الجالس على عرشه الوطيد ، خليفة جده فى سعده وحكمته ، ولى نعمتنا حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أدامه الله راقيا بهذه البلاد العزيزة إلى أوج التقدم والمجد ...

كلمة حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد رفعت بك
عضو مجلس إدارة الجمعية

فى يوم ١٣ رمضان سنة ١٣٦٦ هجرية الموافق ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ فاضت روح محمد على الكبير ونقل جثمانه الطاهر من الإسكندرية إلى القاهرة . وبعد ثلاثة أيام وقف أمراء الأسرة المالكة وكبار العلماء والضباط والأعيان عند موردة بولاق — إذ لم تكن السكك الحديدية قد أنشئت فى مصر بعد — وقفوا يستقبلون نعش الفقيد ويشيعون رفاته إلى مثواه الأخير فى مسجده الذى أقامه على رابية المقطم يضارع به مسجد أبا صوفيا العظيم لتطل منه روحه الطاهرة بعد وفاته على القاهرة وعلى مصر كلها التى أحبها والتى أحياها وأعلى شأنها فى العالمين . وبينما الأمراء والكبراء واقفون منكسة رؤوسهم خاشعة أبصارهم واجمة قلوبهم من هول الموقف وقد طهر نفوسهم الصوم وذكاها الحزن على فقد عزيز مصر إذا هم جميعا زائغو الأبصار يتفقدون الوالى حفيد محمد على فلا يجدونه ولا يقفون من أنبائه فى ذلك اليوم على أثر. وكأنما أرادت الأقدار أن يكون وداع العاهل العظيم كما كانت ولايته وكما كانت حياته كلها وقفا على شعب مصر وفى سبيل مصر فسارت جنازته شعبية خالية من مظاهر الأبهة والملك . وكانت مصر التى نادت به حيا هى التى ثكلته وبكته فى النهاية ميتا .

وما هى إلا دورة من دورات الفلك لا يزيد مداها على بضع عشرات من الأعوام هى فى حياة الأمم كغمضة عين أو كسنة من النوم حتى صحا شعب مصر الوفى فرأى أحفاداً عظاما لمحمد على يحيون تاريخه ويصححون

أخطاء الماضى وما أنسيه الحفيد الأول نحو جده العظيم فيقيمون للعاهل الكبير من المواكب والآثار والذكريات ما يكافىء ولو جزءا يسيرا مما أسبغه الفقيد — أحسن الله جزاءه — على بلاده من نهضة شاملة وخير عميم .

إن فى التاريخ لصفحات ذهبية زاخرة بأعمال المصلحين والمشرعين وبأخبار الحروب والوقائع التى كسبها القواد والفاتحون من مختلف الشعوب . ولكن مَن من هؤلاء كمحمد على خلق أمة من العدم أوما يشبه العدم فبدّل ضعفها قوة وخوفها أمنا وأنشأ من شبابها ورجالها فرقا ومدارس وبعثات ومصانع وجيوشا وأساطيل أعلت راية الوطن فى الأقطار الشرقية ورفعت اسم مصر عالياً بين شعوب العالم طراً مَن من هؤلاء الملوك أو القواد قد خلدت أعمالهم من بعدهم إلى اليوم كما خلدت نهضة محمد على وإصلاحاته فى مصر والشرق ؟

لقد كان يروق لنا أحيانا أن نعقد المقارنة بين نابليون ومحمد على .

فأين العرش والملك العظيم الذى أقامه نابليون بونابرت فى فرنسا وأوربا ! لقد تقوض وقامت على أنقاضه حكومات ونظم لا تمت إلى نابليون بسبب قريب أو بعيد . على حين ظل العرش الذى شيده محمد على لذريته فى مصر والسودان ثابتا كالطود يغالب العواصف والأعاصير التى كانت تهب عليه من ناحية البسفور تارة ومن ضفاف التاميز أحيانا . ولا يزال أحفاد محمد على إلى اليوم وإلى ما شاءالله قائمين على العهد سائرين على النهج يلوذون بالعرش ويقيمونه كما أقامه محمد على على صخرة صلدة من عزمات الشعب وإرادة الأمة .

وإذا جاز لنا أن نقارن بين حياة محمد على الكبير وأحد أبطال التاريخ الحديث فلعل واشنجتون محرر الولايات المتحدة أن يكون أقرب من نابليون شبها بمحمد على وأدنى إلى المقارنة من حيث نشأته وسيرته ومصيره . فمن عجيب الصدف أن ينشأ الصنوان فى بيئة تعنى بالتبغ زراعة وتجارة وأن يتربى الاثنان طفلين يتيمين فى كنف كبير من أقاربهما

حتى إذا اشتد ساعدهما ولاحت عليهما مخايل الذكاء والفطنة اضطلعا بشئونهما الخاصة فأحسنا إدارتها وعرف كلاهما بالجد والأمانة والحزم. ولم تكن فنون العسكرية والحرب بالنسبة للبطلين مهنة تدربا عليها أو دراسة لقنت لهما منذ الصغر . ولكن استعدادهما الطبيعى وما فطرا عليه من سعة الحيلة والمعرفة وحسن الإدراك للأمور قد جعل منهما عندما ناداهما الواجب وامتشقا الحسام فى سبيل الوطن قائدين لهما مكانتهما بين القواد الفاتحين فى العصور الحديثة . ولكن أعجب ما يسترعى النظر حقا من أوجه الشبه بين الرجلين هو أنهما بدآ حياتهما مواطنين مخلصين خادمين لحكومتيهما — واشنجتون لبريطانيا ومحمد على لتركيا . حتى اذا آنسا من صاحب الامر ميلا للعدوان وانحرافا إلى الطغيان وفرض سلطانه على الأهلين لم يترددا فى قيادة الشعب ذيادا عن حياضه وجهادا فى سبيل حرياته . وكما أيدت فرنسا واشنجتون فى حربه ضد إنجلترا فإنها كذلك وقفت إلى جانب محمد على حتى النهاية تناصره ضد تركيا وسائر دول أوربا العظمى . وكان موقف فرنسا فى الحالين إيذانا بقرب تحقيق آمال البطلين . إذ ما لبث واشنجتون أن أصبح أول رئيس اختاره شعب الولايات المتحدة لجمهوريته الفتية . وكان محمد على أول حاكم بايعه الشعب المصرى قاطبة فتولى عرشه باسم الشعب لأول مرة فى تاريخها الحديث .

ومن عجب حقا أن تكون الأسس التى وضعتها عبقرية محمد على منذ أكثر من مائة عام لتكون نبراسا من بعده ودستورا للأجيال المقبلة هى نفسها القواعد التى يدين بها المصريون اليوم ملكا وحكومة وشعبا. فمحمد على هو أول من أطلق الصيحة الأولى مطالبا باستقلال مصر وقد أنجز محمد على ما وعد فأجلى جميع القوات الأجنبية التى حاولت فى عهده أن تطأ أرض الوطن أيا كانت هذه القوات فرنسية أو تركية أو إنجليزية . وهو أول من اخترق بثاقب نظره حجب الغيب وتنور المستقبل البعيد فترجم فكرة الوحدة بين شطرى الوادى إلى اللغة الواقعية التى تفهمها السياسة ولا تفهم سواها وهى

لغة القوة أولا ولغة العلم التى تسير البعثات لكشف موارد البلاد وتأسيس العواصم والوصول إلى منابع النيل وحل ما اكتنفها حينذاك من أحاجى وطلاسم. ذلك لأن محمد على لم يكن يريد أن يفتح الأرض وحدها فى إفريقية أو آسيا. وإنما كان يبغى أن يفتح معهما العقول وآفاقا جديدة للمدنية والعلم والعرفان. فكان محمد على أول من نهل لأمته من نهضة الغرب فى الزراعة والصناعة والثقافة وسائر وسائل الدفاع والعمران. وهو أول من قارب بين الثقافتين الشرقية والغربية وجعل منهما مزاجا مؤتلف العناصر واضح الحدود مما ميز مصر وبوأها اليوم مكانتها المرموقة بين الشرق والغرب.

وكان رجال محمد على إذا حلوا بإقليم جديد ألغوا فيه الفوارق وامتياز الطبقات ووحدوا الضرائب وساووا بين المذاهب الدينية وطبقوا القانون بالسواء على الجميع وجعلوا نصب أعينهم تأمين الناس على حياتهم وأملاكهم ونشر التعليم والمبادئ الصحية الحديثة بين جميع الطبقات. وإذا عرفنا أن نفوذ محمد على قد شمل بلاد الشام ولبنان وفلسطين وشبه جزيرة العرب والسودان أدركنا فضل محمد على فى بذر البذور الأساسية الأولى لفكرة الجامعة العربية وعرفنا إلى أى حد يعتبر العالم العربى كله مدينا للعاهل الكبير الذى غرس شجرة المعرفة والحرية فى تربة الشرق العربى لأول مرة فى العصر الحديث. وكم كان غاليا وعزيزا ما تكبدته مصر ومحمد على فى سبيل تحقيق هذه الوحدة العربية التى ساورت نفس نابليون يوما وطالما داعبت أحلام العرب منذ القدم. فما هى إلا أن استوعب محمد على الفكرة ورسم لها فى ذهنه حدودها وامكانياتها حتى تحولت الفكرة إلى خطة والخطة إلى حقيقة تسندها الجيوش والأساطيل الظافرة. وكان صراعا جبارا بين جنسين وفكرتين وبين أسرتين وعاصمتين بين اسطنبول عاصمة الاتراك العثمانيين وبين القاهرة حاضرة الشرق العربي ومقر الازهر ومثوى الخلفاء وعاصمة الخديويين بين فكرة القومية العربية الناهضة وبين فكرة التتريك أو الركود داخل البناء العثمانى العتيق المتخاذل الذى كان يوشك أن ينهار على أصحابه واللائذين به.

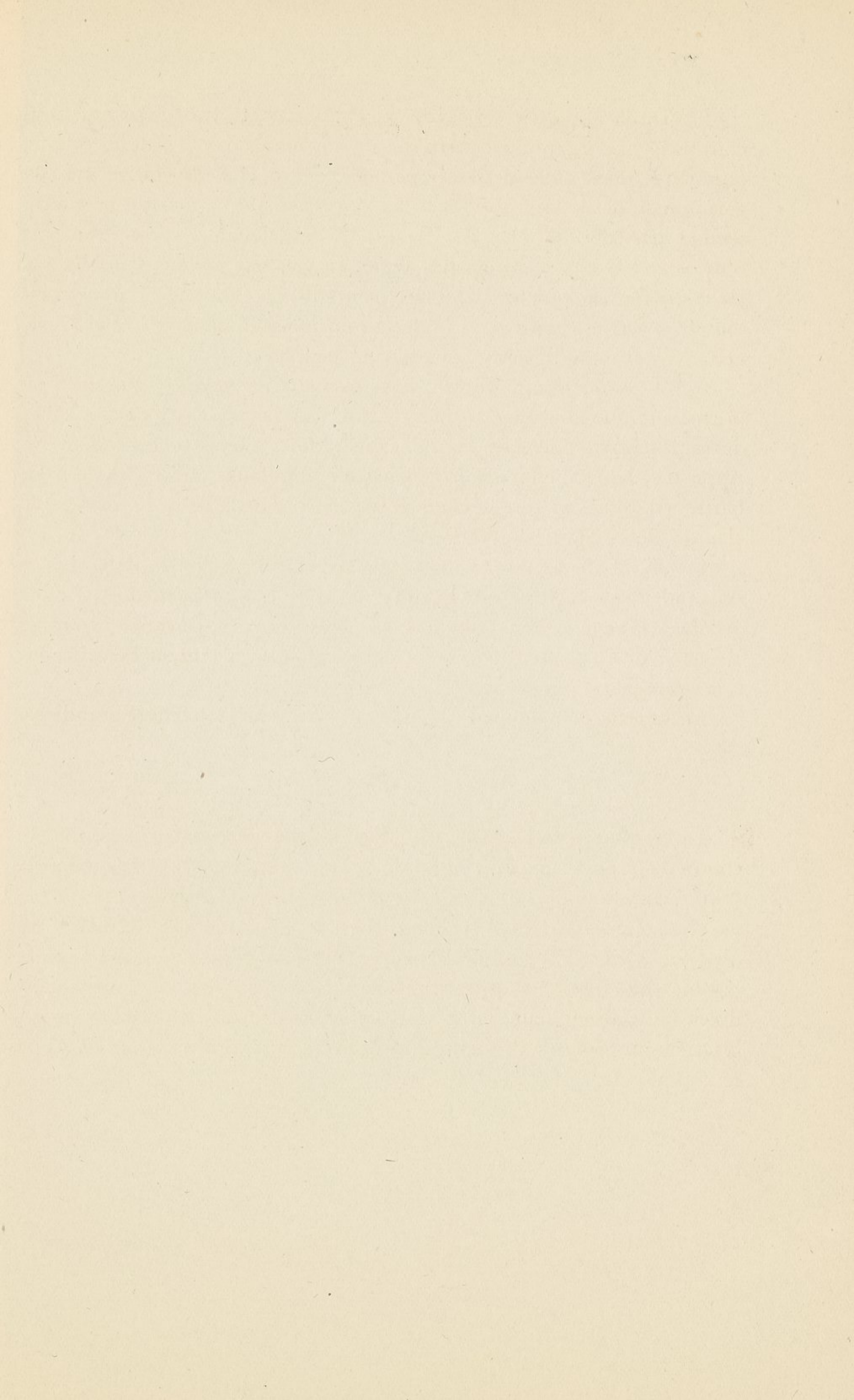
وقاد إبراهيم الفاتح حركة التحرير القومية برا وبحرا فقام الناس من كل حدب يرحبون بالجيوش المصرية أينما حلت وجعلت المدن والقلاع تنافس بعضهما بعضا فى فتح أبوابها واستقبال كتائب التحرير القومية . وتوالت انتصارات إبراهيم حتى هدد إسطنبول نفسها وعندئذ لم تجد الدول مناصا من التدخل . وكانت بريطانيا ومعها سائر الدول الكبرى عدا فرنسا تقف لمحمد على بالمرصاد . فما كان يرضيها أن تقف مصر عقبة فى طريقيها إلى الهند – طريق السويس وطريق نهر الفرات وخليج فارس وكلاهما كان بيد محمد على فصممت على أن ترتد قوات محمد على داخل نطاق مصر والسودان. فأبرمت مع الدول ما عدا فرنسا معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ لإرغام محمد على بالقوة على تنفيذ قراراتها . فاحتجت فرنسا وتكهرب الجو فى أوربا عامة وارتفعت أصوات الفرنسيين مطالبين بالاستعداد للحرب . وفى هذه الأثناء أدلت الحكومة الفرنسية بلسان وزيرها الأول مسيو تيير بتصريحها الخطير الذى يعد أعظم تنويه دولى بمركز محمد على إذ قال مسيو تيير فى مذكرته لإنجلترا وسائر الدول بتاريخ ٨ أكتوبر سنة ١٨٤٠ . «أن حكومة فرنسا تعتبر وجود محمد على كقوة سياسية فى العالم أمراً لازماً ولا بد منه حتى يكمل التوازن بين الدول جميعا وذلك بسبب سعة الأقاليم التى يحكمها والبحار التى يمتد عليها سلطانه » . وكانت الملكة فيكتوريا تعارض السياسة العدائية التى أنتهجها وزير خارجيتها بالمرستون ضد محمد على وضد فرنسا وتحثه على إبرام الصلح . فعجلت بريطانيا بانهاء الأزمة وألزمت تركيا بتنفيذ ما اشترطته محمد على لقبول فرمان يونيه سنة ١٨٤١ على أساس الاستقلال الذاتى الذى قررته معاهدة لندن . وبذلك انتصرت إسطنبول على القاهرة لحظة ولكن يد القدر التى كتبت المنافسة بين الشعبين قد عادت أخيراً فكتبت النصر للقاهرة . إذ ما لبثت تركيا بعد الحرب العالمية الاولى أن تخلت عن أقاليمها العربية واعترفت لها جميعا باستقلالها وبذلك بدّل الله ما بين مصر وتركيا وما بين تركيا وسائر البلاد العربية أمناً بعد خوف وجعل بينهم جميعا مودة وسلاما مقيما .

وإذا كان البرنامج السياسى الذى رسمه محمد على وحققه لم يقدر له الكمال أو التمام فى حياته فقد حمل رسالته من بعده اشبال وأحفاد حفظوا عهده ، وساروا على نهجه فجاء الخديوى إسماعيل وسعى بحدود الوادى إلى موارده الطبيعية وكسب لمصر فخرا وسؤددا لا يزال يتردد فى جنبات إفريقيه إلى اليوم . ثم تلقف الرسالة من بعده فؤاد العظيم وكانت الحرب العالمية الأولى فى سنتها الأخيرة والثورة المصرية توشك أن تنطلق من عقالها فآزر فؤاد الثورة عن كثب وأفاء على البلاد نعمة الدستور والعلم الجامعى والاستقلال . وأخيرا اعتلى العرش فاروق المحبوب ابن الثورة المصرية الحديثة وربيبها فأكمل عمل والده العظيم وكتب الله له الفوز إذ تم فى عهده وعلى يديه أنشاء جامعة الدول العربية لتجمع بين مصر وأخواتها فحقق بذلك غرضا كان محببا إلى قلب جده الأعلى .

وكذلك سعدت فى عهده البلاد بالاضطلاع بحقوقها ومظاهر استقلالها جميعا وبانسحاب قوات الاحتلال من عواصم البلاد وثغورها .

وكم كان الفاروق أعزه الله موفقا وملهما حين دنت الساعة التى استرد فيها الجيش المصرى فى أغسطس سنة ١٩٤٦ آخر معقل من معاقله التى كان يحتلها الأجنبى وهو القلعة التى يعبق ثراها برفات العزيز وتنطق معالمها بما أبدعته عبقرية محمد على الكبير . إذ أمر حفظه الله أن يكون المتسلم للقلعة حينذاك جنود محمد على وجيشه المعنوى . فما وافت الساعة المرتقبة حتى نفخ فى الصور وإذا الأجداث تبعث من القبور كأنه يوم النشور وإذا جنود وضباط من جيش محمد على يسيرون فى ذلك اليوم فى زيهم وهيئتهم تظللهم أعلامهم. وكأنى بهم والخطوات تدنو بهم وئيدا نحو صاحب العرش تحف بهم أرواح الشهداء وترفرف فوق رؤوسهم بنود النصر فتتجاوب أصداء النسيم بأسماء نوارين وعكا وقونيه ونزيب — كأنى بهم حينذاك يحملون إلى الحفيد الكريم رسالة الشكران والحب والإعجاب من جده العظيم . وما زال موكبهم يومذاك يتهادى نحو مقام المليك المحبوب حتى

إذا تعانق العلمان وتصافح الجيل القديم والحديث . انجذب العلم المحبوب نحو صاحبه وملاذه الأعلى . فطبع عليه المليك المفدى قبلة الحب والإخلاص والوفاء عسى أن تحملها الأجواء إلى صاحب الذكرى فى عليين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .



1) De la Citadelle du Caire, le Pacha déchu avait répondu qu'il était vice-roi d'Egypte, en vertu de titres conférés par le Sultan, et que, plutôt que de se faire destituer par des fellahs, il s'ensevilirait avec sa garnison sous les ruines de la ville. A ce défi, le démon de la guerre sembla posséder les plus pacifiques; et ces "fellahs", tous jusqu'aux plus pauvres, se procurèrent des armes en vendant, même, leurs habits, Ils résistèrent à tous les bombardements de la Citadelle, repoussèrent toutes les sorties, jusqu'au 9 Juillet où un message de la Sublime Porte, arriva confirmant le choix fait par le peuple.

2) A Damanhour, El-Elfi Bey, essayait de prendre la ville, en prévision d'un débarquement des Anglais à Alexandrie. Ce plan échoua, devant l'héroïque défense des habitants réduits à leurs seules ressources. Après trois mois d'efforts infructueux, les Mamlouks et Elfi Bey, durent battre en retraite: piteusement et la mort dans l'âme, ils prirent le chemin de la Haute-Egypte.

3) Enfin, le 21 Mars 1807, une expédition anglaise débarqua à Alexandrie et marcha sur Rosette, alors que Mohammed Aly, était occupé à finir avec les Mamlouks, en Haute-Egypte. Devant le courage farouche de la population. Les Anglais rembarquèrent, et l'escadremit à la voile le 14 Septembre.

Après celà, Mohammed Aly, pouvait s'atteler à son œuvre grandiose.

***

La révolution du 14 Mai 1805 fut l'un de ces grands coups dont le contre coup porte très loin. C'est de ce jour que date l'Egypte moderne. Jour mémorable que la nation égyptienne devrait fêter chaque année, en commémoration de l'événement et de l'homme qui, utilisant les qualités et les aptitudes que le peuple mit à sa disposition sans réserve, restaura l'Egypte et, sans les transcendants de la politique — ces infaillibles qui passent leur vie à se tromper — aurait résolu la question d'Orient au profit de l'Orient, et dans l'intérêt bien compris de l'Europe et du monde.

des habitants, que les Français ne s'établiraient en Egypte "que par la dépopulation". Et il insiste sur le courage de ce peuple, dans les termes suivants: "S'il est des hommes capables d'énergie ce sont ceux dont le corps et l'âme sont trempés et raidis par l'habitude de souffrir. Opiniâtres dans leurs haines, acharnés dans les combats de villages à villages, barbares dans la punition de la femme ou de la fille coupable. Tout prouve que leur énergie n'aurait besoin que d'être dirigée pour devenir un courage redoutable".

Témoignage remarquable sur le caractère de cette nation, capable d'accomplir de grandes choses, pourvu que ceux qui la commandent soient capables de lui enseigner ce qu'il faut qu'elle pratique.

III

A ce moment décisif de sa destinée et à la croisée des chemins, l'Egypte était à la recherche d'un Chef, un de ces chefs habiles, qui en quelques années, préparent à un peuple, une fortune nouvelle, et qui sont la personnification des besoins de leur temps. Ce Chef était là, arrivé à propos, un chef de la trempe de Salah-Eddine et de Bailbars, homme d'Etat, homme de guerre, organisateur né, qui travaillait, de son côté, à faire servir les circonstances à sa fortune. Alors, s'attirant l'un l'autre, l'un par son génie et l'autre poussé par le sûr instinct de la race, ils se sont rencontrés, se sont compris, se sont donnés l'un à l'autre pour une nouvelle restauration du pays dans sa grandeur d'avant 1517.

Et voilà pourquoi, le 14 Mai 1806, les principaux représentants du peuple, ayant à leur tête le Nakib-El-Ashraf El Sayed Omar Makram, se rendirent chez Mohammed Aly, et lui déclarérent qu'ils ne voulaient plus être gouvernés par le Wali, nommé par le Sultan. — "Quel est celui que vous voulez investir de son Autorité" ? demanda Mohammed Aly. — "Vous même. Nous voulons que vous soyez notre "gouverneur suivant les lois parce que nous savons que vous aimez le bien". S'étant rendu à leurs vœux ils le revêtirent des insignes du commandement, aux acclamations enthousiastes du peuple.

***

Avec un tel chef, le vieux patriotisme s'est épanoui dans les cœurs les plus simples, et une âme collective, toute de sacrifice, de constance, s'empara de la nation, et lui fit accomplir les actes encore nécessaires, comme suite inéluctable de sa révolution du 14 Mai:

pas sans esprit de retour. Pour l'Angleterre, son établissement aux Indes apportait la révolution dans toute sa politique. L'Expédition française en Egypte a éveillé et formé son intérêt pour ce pays; la domination de l'Inde exige la libre et sûre navigation de la Méditerranée; les Anglais ont Gibraltar, il leur faut la clef de l'autre passage, l'Egypte. Et Lord Castlereagh précisera dans une déclaration catégorique: "Toute position sur la route de l'Inde, doit nous appartenir, et nous appartiendra". Quant à la France, Bonaparte, Premier Consul, représentant de tout ce qui couve, en France, du vieil esprit romain et césarien, revient à son rêve favori et tenace, au premier rêve de grandeur formé dès 1797, l'Egypte. Le 18 Février 1803, il fit prier Lord Whitworth, représentant de l'Angleterre, de se rendre aux Tuileries: "Tôt ou tard, lui dit-il, dans un éclat resté fameux, l'Egypte appartiendra à la France, soit par la chute de l'Empire Ottoman, soit par quelque arrangement fait avec la Porte". Et Talleyrand, son Ministre des Relations Extérieures disait dans un style lapidaire: "L'Egypte fut autrefois une province de la République Romaine, il faut qu'elle le devienne de la République Française". — "Le commerce de la Méditerranée doit changer de face et passer entièrement dans la main des Français". — "La Méditerranée doit être française".

Cet antagonisme de deux ambitions, explique la fatalité qui poussait la France et l'Angleterre à renouveler une querelle, aussi ancienne que leur histoire, qui durera encore cent ans, dont l'objet principal sera l'Egypte, qui ne prendra fin que par l'accord du 8 Avril 1904, et qui sera le prélude de la première guerre mondiale.

***

Mais la nation Egyptienne, cette nation orgueilleuse, qui s'est, en quelque sorte, moulée depuis des milliers d'années sur le sol qu'elle occupe, est bien forte contre le temps et les hommes. Pour ce peuple, tout est commun: le bien et le mal, la disette et l'abondance, car le Nil est le même pour tout. Que la vie soit facile ou dure, il aura toujours devant lui, dressés, les majestueux monuments élevés par les ancêtres, preuve indestructible qu'il a été un très grand peuple, et qu'il peut le redevenir.

A la veille de la révolution française, le philosophe Volney, de retour d'un voyage d'étude en Egypte, posant devant l'opinion française la question de savoir s'il convenait à la France de s'approprier ce pays, dit qu'il faudrait, pour cela, trois guerres: la première contre les Turcs, la seconde contre les Anglais, la troisième contre les Egyptiens. La dernière serait à son avis la plus dangereuse, telle serait la résistance

de l'art de l'ingénieur, il leur fallait s'assurer qu'un Albuquerque quelconque, ne puisse dériver le Nil de l'Ethiopie, à la mer Rouge et, que le pays ne redevienne le désert qu'il a été. C'est pourquoi, poussé par un besoin de sécurité vitale et une sage prévoyance, ils eurent cette grande politique, poursuivie jusqu'à nos jours, de considérer toute la vallée du Nil comme leur patrimoine.

Après l'invasion des Hyksos, renonçant à leur isolement, et obéissant à la grande vérité de l'unité et de la solidarité du monde soumis à un Dieu Unique, ils se firent missionnaires au dehors. Leur apparition au cœur de la Syrie, de la Mésopotamie, fut le point de départ d'une ère nouvelle dans l'histoire de l'antique Orient. A partir de ce moment, toutes les nations de l'Asie, jusqu'aux Indes, vont être éclairées au même flambeau de civilisation. L'Islam, par les lois basées sur les droits de l'homme, en sera, après l'éclipse romaine, le continuateur; et l'Egypte, jusqu'à la conquête du Sultan Selim, en 1517, et pendant plus de six cents ans, redevint le centre de la civilisation.

II

A la fin du XVIIIème siècle, et au commencement du XIXème., l'Egypte était tombée dans un désordre affreux: sans industrie, sans commerce, sans relations intellectuelles quelconques avec le reste de l'humanité. Elle subissait la crise la plus redoutable qu'un peuple puisse traverser: celle de l'invasion étrangère. L'Empire Ottoman dont elle faisait partie parait terriblement travaillé, branlant, entamé de toutes parts. Le Sultan-Khalife se montre, de plus en plus, inhabile à exercer les trois conditions essentielles de capacité qu'un souverain musulman doit remplir: la justice, le degré de sagesse indispensable pour le gouvernement des sujets, et, surtout, le "degré de vaillance et de courage nécessaires pour protéger la terre d'Islam". Les Mamlouks souverains de fait, autrefois considérés comme la personnification du courage et de la générosité chevaleresque, pactisent avec l'étranger, pour ressaisir un pouvoir qui leur échappait.

Les perspectives d'avenir sont bien sombres. L'Expédition française a ouvert la "Question d'Egypte" à une époque où un système de toute pièce s'introduit dans la coutume de l'Europe et y remplace la doctrine complaisante de l'équilibre, qu'il complète en le raffirmant. Il s'appelle le système copartageant qui passe dans l'usage des chancelleries. Après l'avoir appliqué à la Pologne, on parle d'y soumettre l'Empire Ottoman. l'armée française a évacué la territoire égyptien en Août 1801, l'armée anglaise s'embarqua le 14 Mai 1803; mais ces deux évacuations n'étaient

l'ont soigneusement cultivée. Leurs lois étaient simples, pleines d'équité et propres à unir entre eux les citoyens. Une des choses qu'on imprimait le plus fortement dans l'esprit des Egyptiens, était l'estime et l'amour de leur patrie. L'Egypte était, en effet, le plus beau pays de l'univers, le plus abondant par la nature, le mieux cultivé par l'art, le plus riche, le plus commode et le plus orné par les soins et la magnificence de ses rois".

Les plus nobles travaux des Egyptiens et leur plus bel art, consistaient à former les hommes par un régime qui fait les esprits solides; les corps robustes, les femmes fécondes, et les enfants vigoureux. Rien n'était négligé pour polir l'esprit, ennoblir le cœur et fortifier le corps. Le monde antique en était si persuadé, que les plus grands hommes de la Grèce, un Orphée, un Homère, un Pythagore, Platon et Aristote, Lycurgue et Solon, et d'autres, allérent apprendre la sagesse en Egypte. Le patriarche Abraham la visita et la bénit; Joseph, fils de Jacob, et le prophète Moise, furent instruits dans toute sa sagesse. De cette terre bénie, sortit le puissant tronc duquel jaillirent les trois rameaux, ou les trois cultes qui ont couvert tout le globe de la connaissance d'un seul Dieu.

***

Suivant l'expression du temps, l'Egypte "pouvait poser ses frontières où il lui plait". Nonobstant sa force et sa toute puissance, elle aimait la paix parce qu'elle aimait la justice. Cette royauté de sages, cette société gouvernée, comme l'a dit Renan, "par une sorte d'académie de sciences morales et politiques", connut la plus grande période de paix — plus de deux mille ans — que le monde ait jamais connue.

Ce sont les travaux bienfaisants de cette paix perpétuelle, qui ont permis à l'Egypte d'arriver, de l'absence absolue des éléments des sciences, à l'état de perfection où elles s'y montrent dès le roi Mènès. L'ingénieur et le prêtre, c'est-à-dire la Science et la Vérité, travaillent et s'exaltent ensemble pour fonder la plus vraie et la plus durable des constructions historiques.

C'est après avoir vu ces choses en Egypte, que Platon disait : "Heureux les peuples, si les philosophes étaient rois, ou si les rois philosophaient". Cette civilisation complète, au milieu d'une sorte de vide de tout le reste de l'humanité, rappelle l'affirmation du plus ancien livre du monde "Le papyrus Prisse", traduite ainsi par Cicéron: "Ce qu'il y a de plus ancien, c'est ce qu'il y a de meilleur et de plus proche de Dieu".

***

Les Egyptiens ont dompté le Nil et conquis sur lui l'Egypte. Pour conserver leur conquête, devenue leur chef d'œuvre et le chef d'œuvre

La Nation Egyptienne
et
L'Avènement de Mohammad Aly

I

Les peuples, comme les individus, passent successivement par une jeunesse brillante, une maturité quelquefois féconde suivie bientôt d'une décadence mortelle. Mais il y a des nations qui bravent le temps, malgré les coups les plus funestes. Ainsi en est-il de l'Egypte. A plusieurs reprises, elle a été témoin d'éclipses et de renaissances dans sa civilisation; elle a quelquefois plié sous la violence du torrent qui fondait sur elle, mais le torrent passé, elle s'est relevée exactement la même, avec cette puissance de vitalité merveilleuse dont elle n'a cessé, à travers sa magnifique histoire, de donner tant de preuves.

C'est qu'il n'y eut jamais de peuple qui ait conservé plus longtemps son unité et son indépendance, ses traditions, ses usages et ses lois. Toutes ces choses accumulées et emmagasinées, pendant des milliers d'années dans les réservoirs d'une activité psychique, ont formé son instinct national, son subconscient qui est la clef de toutes ses réactions.

***

Une nation est une âme, un principe spirituel. Elle est l'aboutissant d'un long passé d'efforts, de sacrifices, de dévouements. L'antiquité classique n'eut guère qu'une seule nation: l'Egypte. Athènes, Sparte, Tyr, Carthage sont des cités à territoire restreint. La Gaule, l'Espagne, l'Italie, avant leur absorption dans l'Empire romain, étaient des ensembles de peuplades, sans institutions centrales. L'Empire Assyrien, l'Empire Persan, l'Empire d'Alexandre, l'Empire Romain, ne furent pas non plus des nations. Ainsi donc la nation Egyptienne, l'aïeule des nations, resta pendant plus de quatre mille ans, la seule nation constituée.

"Cette nation grave et sérieuse, a dit Bossuet, connut la vraie fin de la politique qui est de rendre la vie commode et les peuples heureux. Comme la vertu est le fondement de toute la société, les Egyptiens

Allocation d'Ibrahim Chahine Bey

Secrétaire Général

Monseigneur

En visitant le palais El-Gawhara à "La Citadelle", j'ai lu, inscrits en arabe, sur le mur de l'entrée de la salle d'audiences, les paroles suivantes du grand homme que nous commémorons aujourd'hui:

« انى لم ابلغ ما بلغت الا بسمعتى بين شعبى وبمشيئة شعبى »

qu'on peut traduire, à peu près, ainsi:

"Je n'ai réussi ce que j'ai entrepris que par la volonté de mon peuple "et sa foi en moi."

Mon allocution est un essai de commentaire historique de ces paroles de l'illustre aieul de la Famille Royale d'Egypte, et de Notre Auguste Souverain Farouk Ier, le Bien-Aimé.

PROGRAMME

HYMNE NATIONAL

RECITATION DU CORAN

1. ALLOCATION DE .. .. .. S. E. Mohamed Taher Pacha
   Président de la Société

2. ,, ,, ... Mohamed Chafik Ghorbal Bey
   Vice-Président

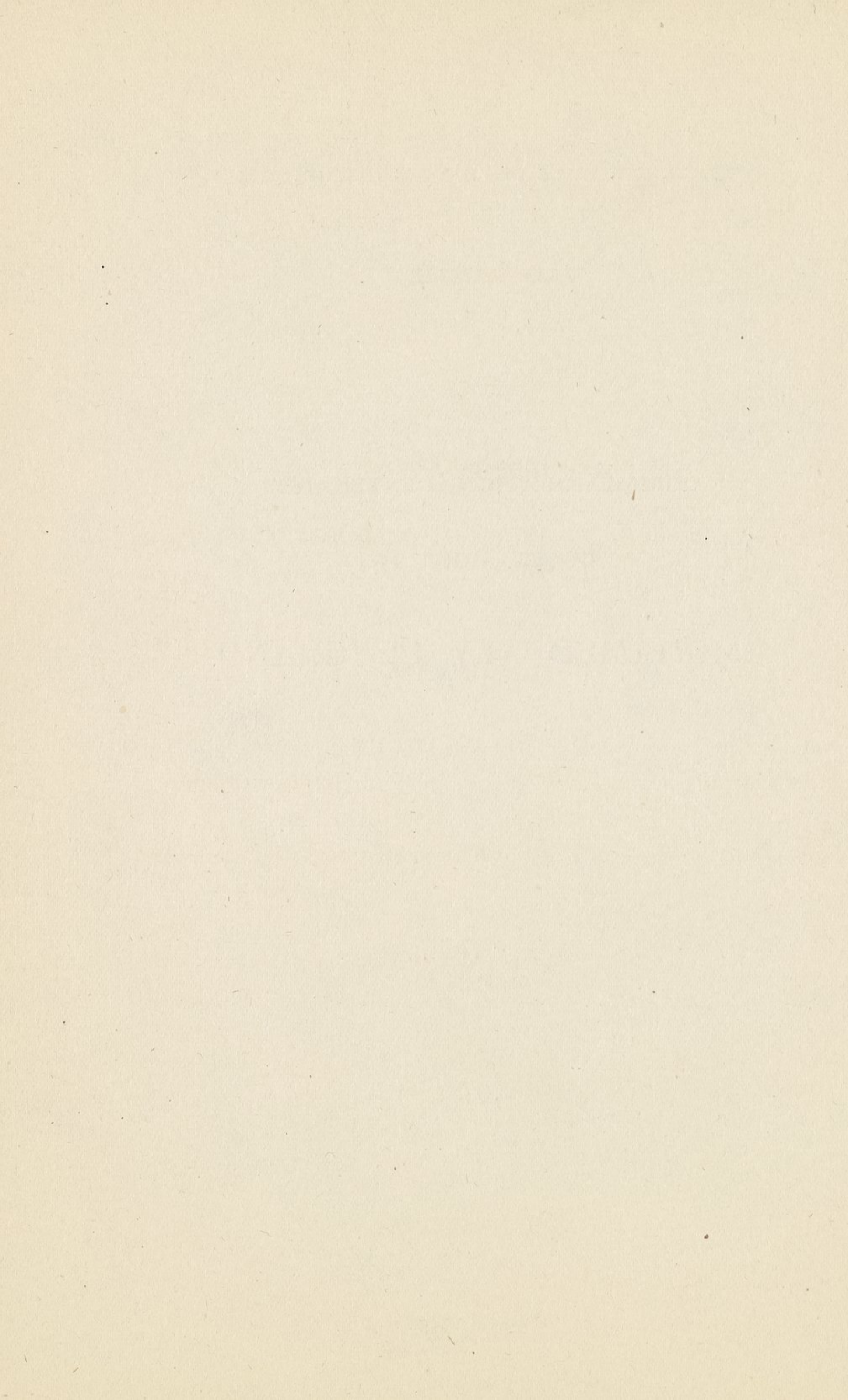
3. ,, ,, ... Ibrahim Chahine Bey
   (*en Français*) *Secrétaire Général*

4. ALLOCATION ,, ... Colonel Abdel - Rahman Zaki
   Trésorier

5. ,, ,, ... Mohamed Rifat Ahmed Bey
   Membre du Conseil

RECITATION DU CORAN

HYMNE NATIONAL



SOCIÉTÉ ROYALE DES ÉTUDES HISTORIQUES

COMMÉMORATION CENTENAIRE

DE LA MORT DE

MOHAMED ALY LE GRAND

1849 — 1949

